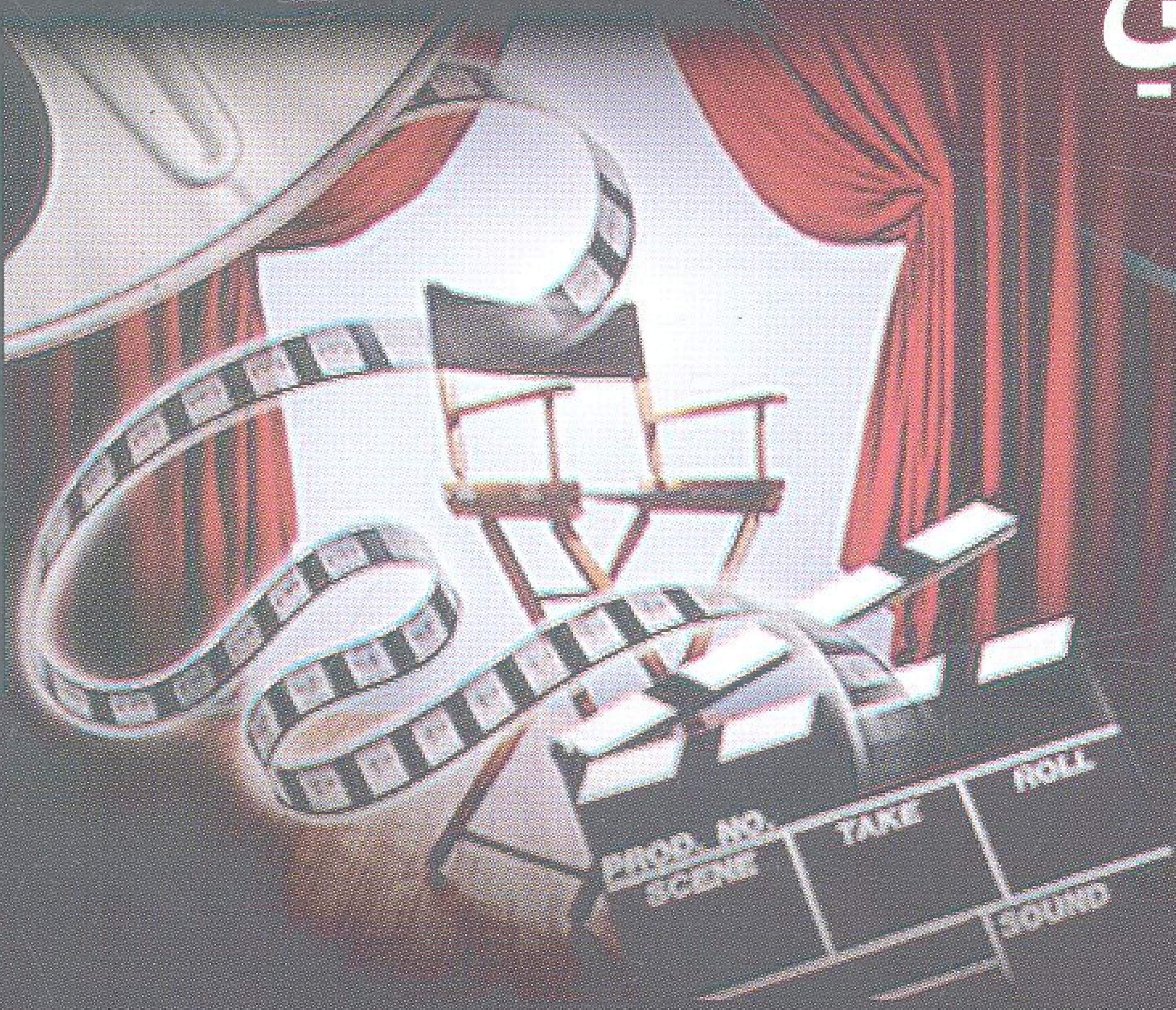
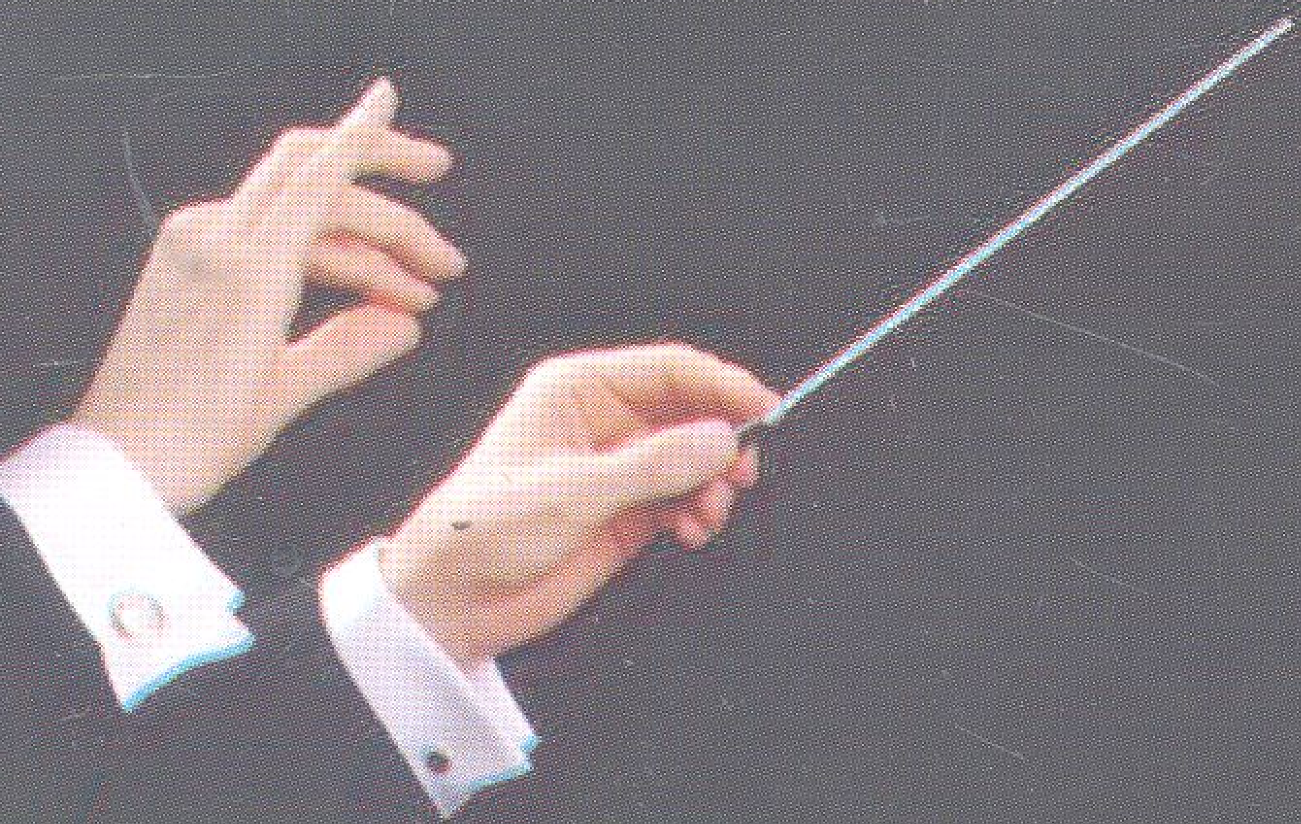
الأداء الإبداعي والتأثير

(تطبيقات إسلامية)

بشير البرغوثي







الطريق للنشر والتوزيع

الأداء الإبداعي والتأثير

تطبيقات إسلامية

الأداء الإبداعي والتأثير

تطبيقات إسلامية

المؤلف

بشير البرغوثي



مؤسسة الطريق للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٦/٢/٣٥٣)

٢١٠,١٩

البرغوثي ، بشير

الأداء الإبداعي والتأثير: تطبيقات إسلامية/ بشير البرغوثي

عمان: مؤسسة الطريق، ٢٠٠٦.

( ) ص

ر.أ: (٢٠٠٦/٢/٣٥٣).

الواصفات: /علم النفس// الإسلام// الإبداعية/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

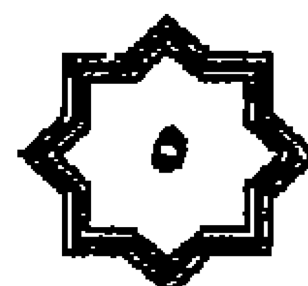
الطبعة الأولى

2008م - 1429هـ



الفهرس

الموضوع **الصفحة**



مُقَدِّمَة

ضل شخص الطريق إلى المدينة، وبينما كان يبحث عن مخرج من الشعاب الجبلية فوجيء بمجنون، وبتلهف وشغف إلى سماع الجواب سأل العاقل : أين الطريق إلى المدينة ؟ وأطرق المجنون برهة، ثم رفع رأسه نحو السماء، ثم استدار يبحث في الإتجاهات الأربع، وبعد أن اطرق قال: "لوكنت مكانك لما بدأت من هنا"، هناك أماكن أخرى أفضل من هذا المكان تستطيع أن تبدأ منها رحلتك إلى المدينة.

إن هذا الرجل يعرف نفسه، ويعرف هدفه، ولكنه لا يعرف بيئته التي يعيش فيها، ولعل هذا يشكل رداً مناسباً على من يقولون إن معرفة الذات (كافية) للإبداع، لابد أيضاً من معرفة البيئة (الطبيعية والبشرية) التي يعيش فيها الإنسان، وتكفي أية زيارة للمصحات العقلية كي تجعلنا ندرك أن الذكاء الذي لا يتم تفعيله ضمن مهارات تفكيرية إبداعية يمكن أن يجعل بعض من يفترض أنهم عباقرة ينزلون هناك.

إن الإبداع ـ كمنتوج نهائي أو فكرة مكتملة ـ يشكل تغيراً سريعاً قد لا تتقبله البيئة البشرية المحيطة، لأن الناس أعداء ما جهلوا من ناحية، ولأنهم مفطورون على التعلق بالوضع الراهن وإن كان مريراً، ولا يملك معظم المبدعين جَلّد الأنبياء وصبرهم، على الإستهزاء ونعتهم بالجنون.

إن هذا التحليل هو خطوة أولية لتصور يتناول القدرة على الإبداع وعلى التأثير في ظروف العمل، والتفاعل مع البيئة المحيطة ضمن معادلة المدخلات والمخرجات، وبالتالي لم يتم النظر إلى الإبداع أو التأثير على أنها "قدرات خارقة" يحظى بها بعض الأفراد، بل كعمل جماعي، لأن الفكرة الحسنة، إن لم تلق قبولاً حسناً، فإنها سرعان ما تندثر، بل الخوف من المحددات المختلفة يجعل بعض المبدعين يحجمون عن طرح ما لديهم كي لا تقع أفكارهم على قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾[1].

وبهذا المعنى فقد تم تجنب الفرضيات التي تتعامل مع الإبداع كومضة، لصالح فرضية تقوم على التفكير الإبداعي المؤثر كمنهج في ضوء تحمل المسؤولية عن الجوارح كمصادر لاستقبال وإرسال المعلومات قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[2]، فليس الهدف أن تبدع في أمر وتمضي، بل أن تكون مبدعاً وأن تبقى كذلك.

---

(١) البقرة (٢٦٤).

(٢) الإسراء (٣٦).

البداية

مهما كان علمك أو عملك أو عمرك، فلا بد أنك قد خبرت لحظة تسأل فيها نفسك: ماذا قدمت لهذه الحياة من جديد ؟ وإذا لم تكن قد سألت نفسك هذا السؤال بعد، فإن الوقت لم يفت بعد، وأن تبدأ متأخراً خير من أن لا تبدأ أبداً.

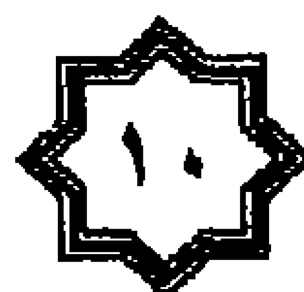
إن المشروع الإبداعي لا يختلف عن أي مشروع تجاري، من حيث الحاجة إلى وضع مسودة موازنة أولية توضح لك الموجودات والمطلوبات، ومن حيث وجود سطر أخير، هو خانة الربح الصافي الذي يفترض أن يتحقق، وهكذا، يستحسن أن تبدأ ببلورة هدف استراتيجي لحياتك، أو إنجاز تتوقع أن تتميز به أو حتى مكانة تريد أن تحظى بها ، ويأتي بعد ذلك تحليل توضح فيه احتياجاتك المختلفة التي ينبغي العمل على توفيرها حتى يتسنى لك أن تتابع مشروعك الإبداعي.

إن الإنسان يتخيل أحياناً أنه ليس هناك مجال لأي ابداع جديد، فقد تطورت الحياة البشرية وتعقدت، وما عاد هناك شيء يمكن التفكير به، فالعلماء يبحثون ليل نهار في ظل إمكانات مادية وعلمية لا تتاح لكل الناس، والشعراء قالوا كل شيء، وحتى الإبداع المالي من المستحيل أن يبدأ فيه المرء من الصفر، وكل شيء عرضة للمنافسة، كما أن الاختراعات المتسارعة لا تجعل أي اختراع جديد يظل جديداً أكثر من أسبوع.

إن كنت تفكر على هذه الشاكلة، فأنت لم تصل بعد إلى معنى الإبداع، أو التميز، أو القدرة على التأثير، لأن السطور الفارغة التي على الإنسانية أن تملأها كثيرة جداً، وهناك تفاصيل قد تبدو هامشية بين العموميات الكبيرة، ولكن التركيز على أي تفصيل منها قد يكون مبدعاً.

وإذا كانت لديك قناعات دينية، فتلك بداية رائعة للبداية، إذ يجب أن تكتشف علماً ينتفع به، بحيث يظل صدقة جارية لك تضيف إلى رصيدك يوم الحساب العظيم ومن يأبى ذلك ؟ لقد كرمك الله سبحانه وتعالى، وفضلك على سائر مخلوقاته ومنحك آلات وآليات غاية في الإعجاز وزودك بكتاب يوضح لك آليات عملها، وما بقي عليك، إلا أن تشمر عن ساعدك وتبدأ رحلة البحث، التي لن تكون مفروشة بالورود والرياحين دائماً، بل لابد من الصعاب، حيث قد لا تجد من يتحمل قساوة الرحلة معك، ولكنك مؤمن أنك ستجد كثيرين يشاطرونك انتصارك في أخر الأمر.

ومهما كان حجم أو نوع طموحك الذي ترغب في تحقيقه، فإنك يمكنك البدء بنفسك : فهناك مصادر معلومات وعلم متاحة لك ـ مهما كان مستوى معيشتك أو وضعك المالي ـ هناك أذنان يمكن لك أن تلتقط بواسطتهما كل ما يبث من علوم ومعارف من خلال هذه الطبقة الجوية المتأينة التي سخرها الله لنا كي توصل الموجات الضوئية والصوتية، وهناك عينان لا يعلم إلا من خلقهما ما تستطيعان أن تفعلا أو تؤديا على صعيد البصر والبصيرة معاً، وهناك اللسان وهو رهن أدائك في التأثير وفي ترويج نفسك أو سلعتك أو فكرتك، وهناك القلم.



وفي الصفحات التالية، سوف نحاول معاً تلمس خطوط منهجية عامة للإبداع في التعامل مع هذه المعطيات الأساسية، التي لم يستطع العلم الحديث أن يتوصل بعد إلى كل أبعادها، وبخاصة من حيث المعاملة العقلية للمواد الواردة، فهذه العلوم لا تزال في طور البحث، ولذلك ينبغي أن تعود إلى القرآن الكريم محاولاً الوصول إلى الحقيقة، عندما تواجه أي مصطلح أو مفهوم أو حالة، فإذا شعرت بالغضب، فتناول القرآن الكريم، وانظر الموارد التي وردت فيها كلمة الغضب، بحيث تحدد لنفسك حدوداً توضح لك متى نغضب ومتى تعفو ومتى تصفح، وستجد أن هذا الفزع إلى كتاب الله يريحك ويشفي ما في صدرك، ويحررك من كل السلبيات والعادات التفكيرية أو الإنفعالات التي قد تستنزف وقتك وجهدك وأعصابك وإمكاناتك وملكاتك بلا طائل، بحيث تظل مشدوداً إلى هدفك الرئيسي دون أي تشتيت لا مبرر له.

وتستطيع مع القرآن الكريم أن تعيد بناء شخصيتك وصقل طباعك وتهذيب عاداتك، بشكل تصبح معه مؤثراً على الآخرين من حولك، مما يساعدك جداً في تكوين مفاهيم مشتركة تشكل لك مصادر معلومات راجعة أو مرتدة، تعينك على قياس وتقييم أدائك، وعندما تكون إجراءاتك سليمة، فإنك ستجد أنك قد حققت الكثير، وإن لم تستطع أن تخترع مركبة تسير بعجلات مثلثة، أو لم تستطع جعل الإنسان قادراً على التقاط أي بث من الهواء مباشرة دون أجهزة، فالتأثير على الناس، من حيث المعلومات والمفاهيم والمعتقدات لا يقل أهمية وخلوداً عن الاختراعات المادية الجديدة، وكم من اختراع ونظرية علمية مكن الإسلام المسلمين من اكتشافها بعد أن أرسى لهم المنهج الإبداعي.

تعريف الإبداع

قال المبصر للكفيف إنه تناول لبناً، فسأل الكفيف : وما اللبن ؟ فقال المبصر إنه سائل لونه أبيض، فرد الكفيف : أما السائل فعرفناه، وأما الأبيض فكيف يكون ؟.

وهكذا، نجد كل باحث في أي موضوع يستهل موضوعه منذ الصفحة الأولى بتعريف ذلك الموضوع لغةً واصطلاحاً، على افتراض أنه لابد أن يكون تعريفاً جامعاً مانعاً لكل شيء.

إن هذا قد يكون صحيحاً في مجالات البحث التي استقر عليها قرار الإنسانية، ولكن هناك أشياء نعيشها ولا نعرفها تماماً ؟ قد يبدو هذا مستغرباً، ولكنه يحصل مع أي واحد منا، إذ كثيراً ما يجد الإنسان نفسه يسير في شارع يعرفه ولكنه لا يعرف اسمه ولو طلب إليه تحديد ذلك الشارع، فلربما قال إنه لا يعرفه.

ومهما كان الأمر فإن التسرع في تعريف كل موضوع يعبر عن إحدى آليات عمل الدماغ، الذي يواصل صناعة النماذج، وترزيم النماذج، والإنتقال إلى غيرها، ولكن كيف نرضي هذا الدماغ عندما يسألنا عن أشياء لا نعرفها حتى لو كانت تعيش معنا ؟ ما لقول مثلاً في الإتفاق على تعريف (الروح) ؟ من منا لا يعرف أن لا حياة بدون (روح)، ومن منا في المقابل يجرؤ على طرح تعريف جامع مانع للروح ؟ وكذلك فما هو

موقف الطبيب الذي يشخص أعراضاً معينة عند مريضه، ولكنه لا يعرف أسم هذا المرض تحديداً ؟ انه يبحث عن المرض الذي تظهر معه أعراض مشابهة، وقد يشخص المرض القديم على أنه جديد وقد يوقفه شيء ما عن الإنزلاق السهل في العمومية، فيبدأ رحلة البحث عن مرض آخر جديد.

إن الإبداع موضوع لا يزال قيد الدرس مثله مثل كثير من مواضيع علم النفس، ولو وصلنا إلى خمسين تعريفاً أو يزيد للإبداع، فإننا لن نصل التعريف المحدد الصحيح، لأننا ببساطة، ندرك أن الإبداع أحد نواتج العقل والقلب، ولكننا لا نعرف كيف يعمل هذا العقل على وجه الدقة، ولا كيف يترجم ويرزم ويغلف نتائجه، وكل ما لدينا هو افتراضات، علينا أن نأخذها كافتراضات، وليس كنظرية علمية موضع تسليم، وبخاصة لأن كل من قدم تعريفاً للإبداع جاء به من خلفيته الأكاديمية أو المهنية، فهذا يعرف الإبداع على أساس دراسة صفات المبدعين الشخصية، وذاك يعرفه على أساس نواتجه من منتوجات وأفكار، وهذا يعرفه بناء على ما يعرفه عن (علم التفكير) والنواتج والأشكال التفكيرية المعروفة لدينا حتى الآن (حل المشاكل، التحليل، النقد، الحكم...الخ).

أما في ثقافتنا العربية فإن تعريف الإبداع جاء لسانياً فقط على أساس أنه "إنشاء شيء على غير مثال سابق له" وأحسب أن هذا هو أبسط التعريفات وأيسرها وأكثر شمولية، لأنه يميز بين الإبداع، وبين غيره من العمليات التفكيرية (كالخلق، والتجديد،...الخ).

وهناك ميزة أخرى لهذا التعريف السهل، وهي أنه لا يضع محددات على النتيجة الإبداعية بتصنيفها على أساس أنها أصلية وملائمة أم لا، لأن هذا التصنيف يحاول أن يحدد أشياء غير محددة أصلاً ضمن اشتراطات قبلية في ذهن واضعي التعريف، والأصوب أن لا نحكم على أساس الأصالة ولا الملاءمة، لأن أحكامنا مناسبة لواقع ولعالم نحن نعرفه ونعيشه وليس شرفاً أن يكون ما فيه هو المثالي أو الكامل الذي لانقض له ولا رفض.

ولما سبق فإن من غير العلمي أن نلجأ أيضاً إلى تحديد الإبداع حسب ما عرفنا من سلوكيات وصفات المبدعين، لأن الآلة الرئيسة المسؤولة عن الإبداع ـ العقل ـ لم تزل شبه مجهولة بالنسبة لنا من حيث آليات عملها، وأولى من البحث عن سلوكيات خارجية لمبدع، أن نركز البحث على أداء العقل المبدع، لأن كل الشرح عن الصفات الخارجية للسيارة لن توصلنا إلى طبيعة عملها، فالهيكل هو ما نراه في شخصية الإنسان لا يعطي فكرة عن المحرك الأساسي في داخله، ولا عن الوقود المستخدم في تشغيله، إن القدرات العقلية الكامنة هي سعة المحرك، ولكن لا توجد مركبة تسير بسعة محركها فقط، بل لابد لها من وقود ووقود العقل خبراته، وهذا أيضاً إفتراض، وان قال به أو قريباً منه ـ عالم نفس شهير مثل ادوارد دي بونو ـ إن السلوك الإبداعي هو انعكاس، مادي لعملية لم نتمكن من رؤيتها بعد، إننا نرى النتائج التي كتب لها أن تعيش أما النماذج التي أجهضت فلا شك أنها أكبر بكثير.

وإذا أردنا أن نضع تعريفاً للإبداع، فلا بد ان نحاول فهمه كآلية من آليات عمل العقل البشري، وكذلك القلب، الأمر الذي يحتاج إلى فتح كثير من حجرات التخصصات على بعضها، حتى ننشيء على غير مامثال سابق قائمة عمليات تضم أخصائي الدماغ والأعصاب، وأخصائي علم النفس المعرفي، والطب النفسي وأخصائي اللغة، والأخصائي الشرعي والاجتماعي، وأخصائي التغذية وأخصائي الوراثة والجينات، حتى نخرج بتخصص واحد يأخذ من كل هذه، ولكن لا يكون أحدها، وإنما يكون تخصصاً مختلفاً موضوعه "الإبداع موضع العمل" وعنوانه "التخصص العقلي".

أن هذا التحليل يتعلق بأحد الآثار السلوكية للإبداع مما يمكن ملاحظته، ألا وهو ذلك الجزء المتعلق بالقدرة على التأثير، ذلك أننا في مجتمعنا الإسلامي أحوج ما نكون إلى امتلاك هذه القدرة، وتبني منهج أو مناهج خاصة بها، حتى تكون لدينا بيئة خاصة للإبداع، في مجال التواصل المؤثر على الأقل، هذا ولا يمكن الوصول إلى أفراد مبدعين في شتى نواحي الحياة إلا بوجود حاضنة اجتماعية أو جماعية على الأقل، وتتعاضد هذه الفكرة ليس مع سجلات المبدعين التي نعرفها، ومع تراثنا الإسلامي الذي يؤكد دائماً على أهمية "الجماعة"...

الإبداع والتأثير

يكـون المؤثر مبدعاً (في إحداث التأثير)، ولكن المبدع قد لا يكون مؤثراً، إن من حسن حظ الناطقين باللسان العربي، أنهم يستطيعون التمييز في الصـفات بشكل أفضل من معظم الألسنة الأخرى، فهناك عمل مبدع، وآخـر خـلاق وآخـر مبـتكر، ومصـمم وهكـذا، ومـن عجـب أن اللغة الإنجليـزية تلتـبس فـيها الأمور فقد تستخدم كلمة (creative) للتعبير عن كـلمة خـلاق أو مبدع، وتفتقر كلمة التصميم (design) على الرسم، مع قصـر كـلمة (innovator) عـلى الإخـتراع أكـثر منها على الإبداع، وتميز العربية بين مصطلح مبدع - بديع قال تعالى:﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1]، ومصطلح قال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [2].

إن كـلمة الإبـداع تشـير إلى وضع التصور عقلياً ثم تجسيده مادياً، ولكن للكلمة معنى آخر قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[3] وكذلـك قـال تعـالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [4] وبهـذا المعنى جاء في الحديث

---

(١) سورة البقرة الآية (١١٧) وسورة الأنعام الآية (١٠١).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١٤).

(٣) سورة الحديد الآية (٢٧).

(٤) سورة الأحقاف الآية (٩).

الشريف "وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[1]، ومن العجيب أن بعض الغربيين ـ توبي هاف[2] ـ يدعي أن هذا الحديث يعيق الإبداع، ووضع قيوداً على تطور مجالات الاستقلال، وأغلق آليات التغيير...الخ.

إن الحديث واضح، فقد كان مما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه إذا صعد المنبر يقول: "أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة" وهذا في مصادر التشريع، ومن حق كل جماعة أن تحدد نصوص تشريعاتها وأن لا تسمح بالخروج عنها، دون أن تتهم بإعاقة الإبداع.

أما نص الآية الكريمة الوراده أعلاه فلا يحتاج إلى أي شرح فالإسلام يشجع الإبداع "لا يكن أحدكم إمعة" وكذلك فإن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الحديث الذي جاء قبل حقوق الملكة الفكرية، وبشكل أبعد مدى منها بحيث يشجع على أنتقال الإبداعات الإنسانية وترويجها، بدل احتكارها، كما أن العلم النافع هو من باب الصدقة الجارية مادام ينتفع به.

أما الخلق، فإن الأعجاز الرباني يقوم على شموليته، وعلى أيجاده من غير ما صورة سابقة له، والمعنى الإصطلاحي (النفسي) للكلمة توسع في استخدامها، لتشمل الأفكار، والحلول، ولم تعد تقتصر على الإيجاد من العدم.

---

(١) رواه مسلم وأوره النووي في رياض الصالحين.

(٢) فجر العلم الحديث، عالم المعرفة (٢٢٠)

إن الاختلاف ليس في المصطلحات من حيث توسيع أو تضييق أو إساءة استخدامها، بل يمتد إلى التطبيقات العملية، ولو أخذنا أحد مصطلحات التفكير الإبداعي المعاصر (brain storming)، فإننا نجد أن ترجمتها العربية، كما اعتمدها مجمع اللغة العربية، هي التقصيف الفكري أو الذهني أو العقلي، أما لو كان لدينا تصور إسلامي مقابل لوضعنا لها مصطلحاً آخر مثل الإذكاء الذهني أو حتى التدارس، لأن العملية لا تتم إسلامياً بشكل فجائي من اللاشيء، بل إنها عملية قصدية منظمة لا تحتمل فجائية العاصفة ولا هو جائيتها، لأن البصيرة في اللسان العربي مجاورة للبصر (لفظاً)، وليس من باب المفارقة اللسانية وحدها، وهي تأتي بناء على تنسيق إدراك الحواس وتحويله إلى مفاهيم مجردة ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [1].

وكذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [2] وكذلك ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [3] وكذلك ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [4] وكذلك ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [5]، ولو نظرنا في الآية الكريمة الأخيرة

---

(١) سورة يوسف الآية (١٠٨).

(٢) سورة الأعراف الآية (٢٠١).

(٣) سورة ق الآية (٢٢).

(٤) سورة الملك الآية (٣-٤).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٩٨).

فقـد نجد المفردات _ ترى _ ينظر _ يبصر _ لا يبصر _ فإننا نجد التفريق واضـحاً بـين الـرؤية والنظر والبصر الميكانيكي (كآلة) والبصيرة الداخلية (كآلـية)، ولكـن العملية متكاملة أيضاً ضمن نسق اتصالي واحد، لم أجد عـنه تعـبيراً ممـاثلاً بـنفس الشمولية لدى أي باحث نفسي تناول موضوع التناسـق أو التوازن الحسي الإدراكي، أما في ثقافتنا فالأمر قصدي واضح متسلسل:

- هـناك الـرؤية (قـد تكون من زاوية واحدة للحظة واحدة وهي غير الرؤيا طبعاً).
- هناك النظر (عملية اتصالية قد تكون مضلله).
- هـناك البصـيرة الداخلـية (تكويـن مفاهيم) أي دخول مرحلة التأثر والتأثير أو عدم دخولها.
- الآيـة اللاحقـة أيضـاً توضـح أن لـيس المقصـود بالبصر هو عملية ميكانيكـية بيولوجـية، لأن هـؤلاء إن مسـهم طـائف من الشيطان، لنلاحظ كلمة المس، وما تحدثه من أثر كهربي في المخ، وكيف تنشط بعض الخلايا العصبية والنواقل عند تعرض الإنسان لخبرات معينة، وهـذا المؤثر هنا هو طائف شيطاني (حيث الصور تطوف في الدماغ بشـكل عجيب)، ويكون العلاج باستحضار خبرات مضادة بالقدرة عـلى التذكر (تذكروا)، فإذا هم مبصرون، كيف يكون الإبصار هنا فعـلاً ميكانيكـياً ؟ أو فعـل نظـر ورؤيـة ؟ إنه إبصار داخلي، لم يتم بالصـدفة، ولا بالتقصـيف بـل بتسلسـل منظم لأداء عقلي تفكيري قصدي.

إنني لا أريد أن أشتت عقل القارئ هنا، بالاقتباس في هذا أو ذاك، ولا أريد ممارسة الوعظ الديني، بشكل تلقيني مباشر، وإنما أقول أن البصر عندنا مرتبط بالبصيرة ضمن آلية من التنسيق الحسي - الإدراكي - وهي قابلة للتفعيل بتنشيط عملية التذكر والتيقن، والتركيز (البؤرة)، فإذا احتار عالم نفس من طراز إدوارد دي بونو وغيره كثيرين تجاه لحظة "وجدتها" أو لحظة الإكتشاف فإننا لا ننبهر بذلك، وأمامنا عشرات الآيات التي تتحدث عن البرق وكيف يضيء أحياناً فنمشي فيه ونمضي معه، وكيف يكاد يخطف الأبصار أحياناً... إنها عمليات عقلية متسلسلة تبدأ في المعطيات الراهنة، ومن اللحظة الراهنة، وتشمل الماضي والحاضر والمستقبل، إن الناس يتحدثون أحياناً عن "الحاسة السادسة" وأعتقد أن الحساسة السادسة ما هي إلا نوع من البصيرة النافذة، وأنها ليست نتاجاً عشوائياً لعمل عقلي مرتبك، بل أنها تمثل أداءً راقياً يتم فيه دمج الخبرات الماضية والحاضرة واستشراق المستقبل، وليس التنجيم أو الإطلاع على الغيب، فكيف تحشد طاقتك العقلية حتى تحصل على مزيد من لحظات الإبداع في حياتك كلها؟.

دقة الملاحظة: وتشمل رؤية ما يراه الأخرون، وكذلك النظر من أكثر من زاوية، وإرسال إضاءة العينين كي تنير الزوايا المعتمة التي لم يحاول الآخرون إضاءتها لأي فكرة أو عمل.

كذلك لا تنظر بعين اللحظة، بل بادر فوراً على الإنتقال من الحاضر إلى الماضي إلى الشكل الجديد، واربط الأشكال معاً، لا تقف عند شكل ما على أنه دائري فحسب، بل تخيله مثلثاً أو مستطيلا أو مكعباً.

كذلك لا تنظر إلى الوضع المالي لمن يقابلك الآن، بل اجمع معلومات عن ماضيه، وتخيله في أوضاع مختلفة، واربط الوضعين أو الثلاثة معاً قبل الحكم له أو عليه، إن مجال التجريب واسع جداً، ولا ثابت سوى ما يتصل بعقيدة الإنسان الدينية، أما ماعداها فلا مسلمات فيها، أنظر بعينك ودماغك.

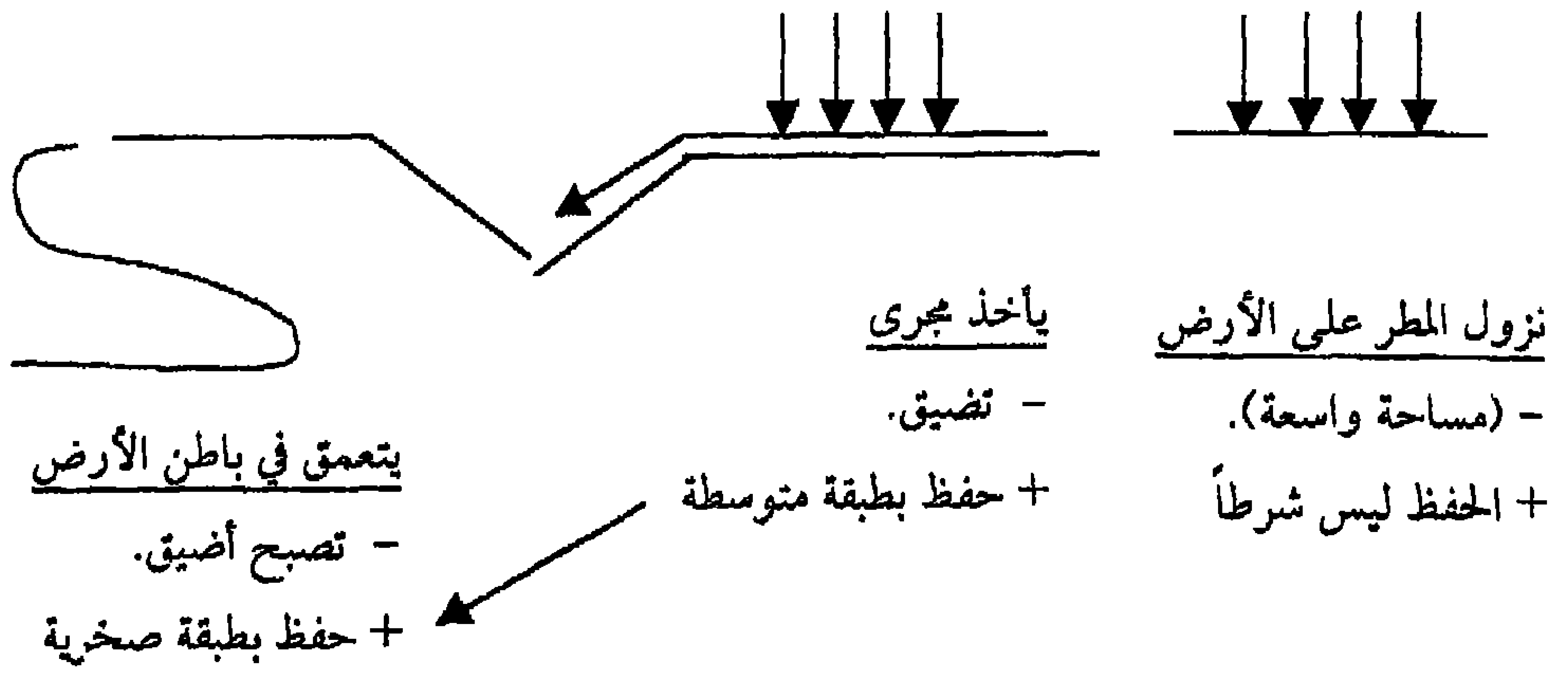
لا تقتصر نشاطك البصري (العقلي) ضمن مناسبات معينة، أو في أحوال محددة بمعنى لا تقصر تفكيرك على عملك وأنت جالس في مكان العمل فقط، ولا تقصر تفكيرك في زوجتك على اللحظات التي تكونان فيها معاً فقط، بل استغل كل أوضاعك وحالاتك كي تفكر فيما مر بك من صور، وما أبصرت من أفكار وأشياء بمعنى ادامة التفكير والنظر في البيئة المحيطة وداخل نفسك، وإذا كانت لديك قناعة دينية فإنها تشكل نقطة انطلاق مثالية قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [1] إن إيحاءات كلمة الألباب هنا واسعة أحدها أنها ضد المظاهر والقشور، فهناك أشياء أخرى تحت الركام الذي تراه على السطح، وذكر الله يجب أن لا يكون مرتبطاً اشتراطياً بحالة واحدة، (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أي أن التفكير يجب أن لا يرتبط بمثير شرطي محدد (المشي أو الإستلقاء)أو غير ذلك من حالات ينصح بها

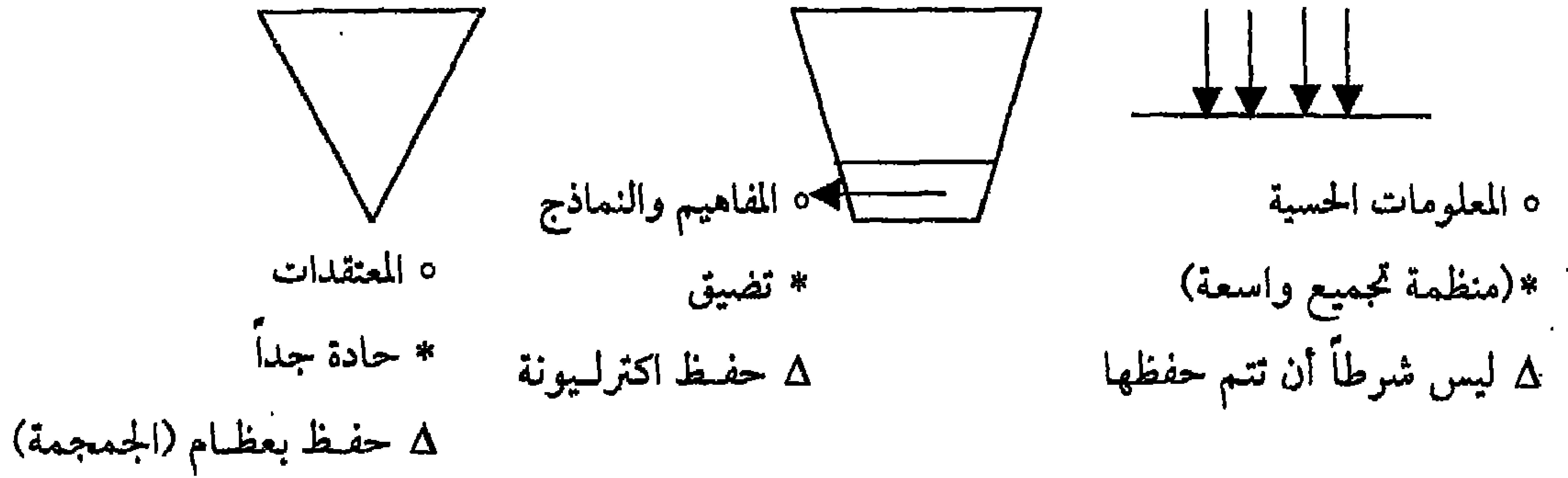
(١) سورة آل عمران الآية (١٩٠-١٩١).

البعض من أجل الوصول إلى ذروة الأداء العقلي، وتأكيداً لمنهجية الحالة جاءت كلمة يتفكرون وليس يفكرون ـ لمرة واحدة ـ بل لتدل على إدامة التفكر وتفعيله وقصديته للوصل إلى نتيجة _ حكم _ قطعي يميز بين الصح المطلق، والخطأ المطبق، وبين الحق وبين الباطل.

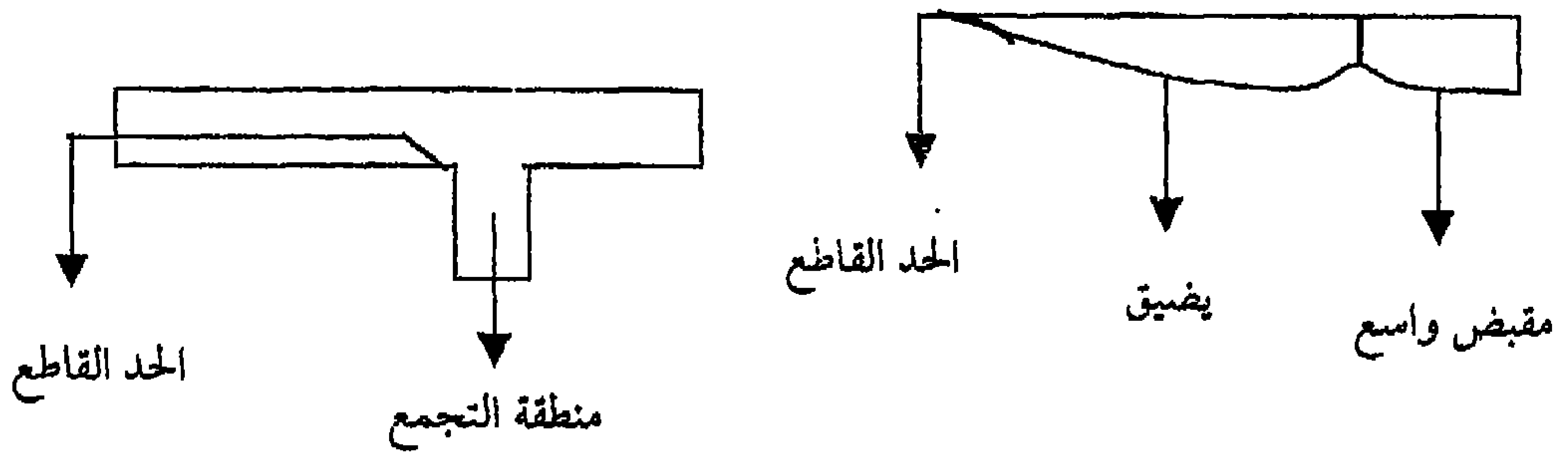
لا تفكر بالمنطق ! قد تبدو هذه النصيحة مغلوطة، ولكنها حقيقية، فالمنطق كما يرد في غير مكان هنا، مرتبط بالنطق والجدل المنطقي الذي هو نشاط لساني لا عقلي، مقدمة ونتيجة وعبث لا طائل وراءه ناجم عن إدارة اللسان في كل اتجاه، ويقول إدوارد دي بونو إن المنطق اليوناني هو أخطر المخلفات التي تحد من عملية التفكير في النهضة العقلية الجديدة كما يسميها في كتاب (أنا على صواب...أنت على خطأ)، حيث يقترح الإنتقال من منطق الصخر (الكتل) إلى منطق الماء (المنساب)، لأن أية صخرة تضيفها إلى صخرة سيظل حاصل جمعها صخرتان، أما القطرة والقطرة فإنها تشكل قطرة كبيرة.

وعلى أي حال فإن دي بونو قد ظل على الأرض، أما في الإسلام فإن العملية تشمل السماء والأرض، وحتى يتكون "منطقة الماء" فلا بد من توافر عناصر المعلومات .





وإذا أخذنا عمل العقل كسلاح:



نلاحظ مع التطور كيف صارت منطقة التجميع تحتاج أخلاطاً ومركبات، ليس شرطاً أن تنطلق بنفس الشكل، كذلك الحال مع المعلومات التي صارت تتداخل وتتفاعل، وليس شرطاً أن يكون المقذوف نفس المواد المجمعة.

وإذا أخذنا **الفم**: اتساع ثم يضيق تدريجياً(بؤرة) (لنلاحظ مكان الكلمة في الفم).

وإذا أخذنا **الأذن**: اتساع ثم يضيق تدريجياً، أصوات مختلفة إلى أن يتم تركيزها.

وكذلك **العين**: اتساع ثم يضيق تدريجياً ضوء تتم بوأرته.

وعناصر جمع المعلومات يمكن رصدها في ثلاث: السمع، البصر، الفؤاد تقابلها ثلاثة أوساط ناقلة: الهواء، الضوء، الماء.

أما المعنى بالتأثر فهو التراب في كل الحالات، في الحياة الإنسانية (كلكم لآدم وآدم من تراب)، وفي الطبيعة حيث نرى أن وظيفة الماء في معظم الأحيان تعتمد على نوعية التراب المتلقي لهذا الماء، يمكننا كذلك أن نلاحظ العلاقة بين الرعد و (الهواء) والبرق (الضوء) والغيم (الماء)، وكذلك علاقات وسائل الإتصال (الإعلام) المحكومة بعدم الخروج عن المعادلة وهذا الإبداع يصبح غير محكوم بأية محددات إلا إرادة الله العلي القدير، وفيما عداها فهو إبداع باتساع السماء، وبسرعة الضوء، وبانتشار الهواء، وبانسياب الماء، وتعقيدات معادلات التراب، هكذا فهمنا الإبداع الإسلامي، فاكتشفنا الصفر العددي الذي لولا اكتشافه ما كان هناك علم من العلوم وهكذا نكتشف (الصفر العقلي) من استبصار سيدنا إبراهيم، ومن كتاب الله الكريم، وبه سيتغير كل شيء موجود الآن على سطح هذه الأرض، في فترة علمها عند الله، وبهذه المعاني فإن الإبداع ليس مجرد عملية لسانية تقوم على المقدمة والنتيجة بل عملية يمكن رؤية مثالها في قطرات الماء العالقة بالهواء على اتساع السماء، والتي تنزل على الأرض

فتحفر فيها مجرى وتأخذ طريقها إلى باطن الأرض، وبعدها لابد من بذل جهد ما من أجل استخراجها والإفادة منها، واللحظة التي يتم فيها الإكتشاف لا تأتي هكذا على قاعدة _ وجدتها _ ولكنها جهد مبذول يؤتي أكله، ونستخدم مثالاً آخر من الماء أيضاً : إن الماء الموضوع بإناء تحته نار، يظل فترة طويلة أو قصيرة وهو يسخن، وتتزايد درجة حرارته تدريجيا ولكنه لا يغلي (أي يبدأ التحول إلى حالة أخرى) إلا عند درجة مائة مثوية ونلاحظ هنا أن درجة واحدة هي التي تصنع الفرق بين ماء يغلي وآخر لا يغلي، وهذا في الظاهر، أما على الصعيد العملي، فإننا بحاجة إلى تسخين الماء مائة درجة، وليس إلى درجة واحدة، وما أكثر تمسك البعض "بالصدفة" ربما لأنهم لا يريدون الوصول إلى ترتيب وغاية وكل ما في الكون، ليصلوا نتيجة أن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها، وربما لأنهم يؤثرون التثاقل إلى الأرض على العمل والكد بانتظار "اللحظة".

وفي حالة التفكير المائي، فإن لابد من ملاحظة ظاهرتين :-

- لابد كي يتكون الماء من برق، رعد، ووسط مؤين ناقل، ولابد للإبداع من سمع وبصر وفؤاد (وشبكات عصبية قابلة لنقل الشحنات والإشارات) حتى يكون الإبداع حياً، فلا بد له من الماء" وجعلنا من الماء كل شيء حي" إن كلمة كل تشير إلى الكلية من حيث الحقيقة والمجاز، ونفهم حيوية الإبداع من نزول المعلومات إلى شاشة الكمبيوتر، فهنا لا مجال لأي تفاعل عضوي بين المادة ومستقرها، أما في حالة عقل الإنسان فلا بد أن تتفاعل المادة العلمية مع قشرة الدماغ، لذلك تعتبر وظيفة الكمبيوتر وظيفة استيداع واسترجاع، على حين أن وظيفة العقل هي الإبداع.

التأثير:-

التأثير: هو من أكثر ما يحتاجه الإنسان للنجاح في حياته الشخصية والمهنية، وعلى الرغم من أهمية التأثير، إلا أن المؤسسات الاجتماعية لا توليه العناية المنهجية اللازمة لتحويله من طاقة كامنة لدى الفرد إلى طاقة فاعلة، إن التأثير هو :

- علم ينبغي تعلمه والتمرن عليه دون كسل أو ملل.
- مواهب لابد أن تصقل.
- واستعدادية وميول يجب أن تفعل.

وبدل أن تحاول المؤسسات الإجتماعية – من الأسرة وحتى الجامعة مروراً بالمدرسة ـ أن تدمج هذا العلم ضمن مناهجها، فإنها تحاول بأشكال مباشرة وغير مباشرة أن تجعل الفرد يتأثر ولا يؤثر وينفعل ولا يفعل، طيلة عقدين من عمره على الأقل، ثم تبدأ بطرح الأسئلة حول عدم قدرة الفرد على التأثير، وحول عدم وجود شخصية مستقلة له، وحول عدم قدرته على جذب الآخرين إليه، وحول تفكك الروابط الأسرية والاجتماعية والمهنية، وحول زيادة حالات الطلاق وارتفاع نسبة الجريمة، واللجوء إلى العنف في مختلف المؤسسات وبين مختلف الفئات العمرية، وظواهر ومظاهر وأعراض أخرى لا عد لها ولا حصر، وتنجم عادة عن (مرض) واحد هو العجز عن التأثير، وعدم قدرة الشخص على

أن يكـون مؤثـراً، إن الشـخص المؤثـر يسـتطيع أن يحصـل عـلى الوظيفة المناسبة له بسهولة أكثر من زميله الذي لم يؤت حظاً من التأثير، والشخص المؤثـر يسـتطيع أن يكـون رجـل إعـلام نـاجح، ومندوب مبيعات ناجح، ومديـراً ناجحاً، وزوجاً ناجحاً، وقائداً (سياسياً ودينياً واجتماعياً) ناجحاً، والشـخص المؤثـر أقـدر على لم شعث أبنائه وزوجه من حوله، فلا شقاق ولا طـلاق، والشـخص المؤثـر لاينسـحب ولا يـتقوقع عـلى نفسه، أفلا يسـتحق العلم والمنهج الموصل إلى كل ذلك أن يولى حصة دراسية واحدة في الأسبوع ؟؟.

إن الشـخص المؤثـر يسـتطيع أن يحقـق لنفسـه ولمجموعته ومجتمعه أفضـل النـتائج بأقل قدر من المجهود والوقت، وبالتالي، فإن الإستثمار في زيـادة قـدرة الإنسـان على التأثير هو استثمار في محله الصحيح ويجب أن يحظـى بالأولويـة مـن حيـث توفـير الكـوادر البشـرية اللازمـة للتعلـيم والتدريـب، والآلات والأدوات ووسائل الإيضاح والعرض التي لابد من اسـتخدامها من قبل المعلمين والمتعلمين على حد سواء من أجل الحصول عـلى المدخولات والمعطيات، المطلوبة، والخروج بالنتائج، والنتائج المرتدة اللازمة لتعويد الفرد على ممارسة القياس والتقييم والتقويم.

وفي غـياب مؤسسـات التنشـئة الإجتماعية عن تعليم الأفراد علم الـتأثير، فـأن كـثيراً مـن الكـتاب والباحثين قد لجأوا إلى المصادر الأجنبية يلـتهمون سمهـا ودسمها وغثها وسمينها، حتى بدا الأمر وكأننا لا نمتلك مقومـات صـناعة الشخصـية المؤثـرة، بـل صرنا نتصيد النماذج المستوردة

الجاهـزة، وكـأن لـيس لديـنا مـا نقدمـه في هذا المجال، ولن نركز هنا على سـلبيات هـذه المسـتوردات لسببين :- أولهمـا أن القدرة على التأثير هي موضوع إنساني قابل للتفاعل مع الآخرين، بل إن الإطلاع على ما توصل إلـيه الآخـرون معهـم بالنسـبة لنا سواء من أجل فهمهم والتعارف الميسر مهم، أو من أجل أخذ ما يناسبنا من هذه التجربة الإنسانية.

أمـا السـبب الـثاني للإحجـام عـن الـنقد، فهو أن النقد بطبعه سلعة فكـرية سـهلة ورخيصـة، والمهـم في العلـوم الإنسـانية هـو هضـم التجارب والخبرات واستيعابها ومن ثم تجاوزها بإتيان البديل، وفور أن تتوفر البدائل، فـإن الإنسـان بطـبعه يمـيل إلى اختـيار مـا يراه أنسب له، وأكثر ملاءمة لبيئته واحتياجاته، ولا داعي بالتالي إلى مواصلة الجدل ومحاولة تسجيل النقاط.

إن هذيـن الموضـوعين المترابطـين – الـتفكير والتأثير – بحاجة إلى مزيد من الاستثمارات والجهود المالية والفكرية من أجل إرساء دعائمهما، وقـد لا يكون من المبالغة الإدعاء بأن أي استثمار بعيداً عنهما قد لا يؤتي أكله ولا يحقق النتائج المرجوه منه، إذ ما معنى إيجاد وسيلة إعلام تلفزيونية دون وجـود مذيـع مؤثـر واحـد يشـد الـناس إلـيه ؟ وكذلـك الحـال في الإذاعات التي تخلو أحياناً من المذيعين، وما معنى وجود السلعة الجيدة أو الخدمة الجيدة من دون وجود رجل مبيعات قادر على التأثير وعلى إشعال ضـوء قـرار الشـراء في صـدور الـزبائن ؟ وما معنى أثاث البيت من دون وجـود شخص مركزي مؤثر ؟ بل وما معنى الرسالة الحضارية أو الثقافية أو السياسـية أو الدينية إذا لم تجد أشخاصاً مؤثرين يدعون إليها ويحملونها في حلهم وترحالهم ؟.

إذا كـنا نـريد أن نـتحول إلى مجتمعات مؤثرة، فإننا بحاجة إلى أفراد مؤثرين ولن نجد هؤلاء الأفراد على قارعة التاريخ أو الجغرافيا، بل لابد أن نكتشـفهم مـن بينـنا، هـذه هـي سنة الله سبحانه وتعالي، حتى في نشر رسالاته السماوية، وفي اختياره لبعض البشر كي يحملوها وينشروها، ومن المهـم الإشـارة إلى أن أي شـخص لن يتحول إلى شخص مبدع بمجرد أن يقـرأ كـتاباً، أو يحضـر دورة تدريبـية ما، بل إن الشخصية ككل بحاجة إلى صـقل ومـران، ولا يوجد في هذا الأمر حيل أو حلول سحرية، ولا يمكن مشاهدة فيلم التأثير من آخره في محاولة للقفز إلى نتائج سريعة.

النظرات

العين :-

مـا هـي النظرات التي تطلقها ؟ هل سبق لك أن حاولت التعرف إلـيها ؟ وأخـذ معلومات رائعة عنها من المحيطين بك والمقربين منك ومن مـرآتك ؟ أي الـنظرات التالـية تطلقها أكثر من سواها ؟ ومن أين تنطلق نظـراتك ؟ قـد يبدو السؤال غريباً، ولكن هناك بالفعل نظرات تنطلق من العقـل أو القلب أو العين أو الأذن أو الأنف أو الفم ؟ حاول أن تتعرف عـلى نظـراتك وعـلى نظـرات الآخـرين وارصد تطور هذه القدرة لديك ضمن تصنيف قد يكون على الشكل التالي :-

- النظرة الحارقة.
- النظرة الحزينة.
- النظرة الدامعة.
- النظرة الضاحكة.
- النظرة الغاضبة.
- النظرة الحائرة.
- النظرة الماكرة.
- النظرة الثاقبة.
- النظرة الحاسدة.

❖ النظرة الشاردة.
❖ النظرة المبهمة.
❖ النظرة المتعالية.
❖ النظرة المنكسرة.
❖ النظرة الآسرة.
❖ النظرة الناعسة.
❖ النظرة النائمة.
❖ النظرة الواثقة.
❖ النظرة المتشككة.
❖ النظرة الذكية.
❖ النظرة الغبية.
❖ النظرة الفارغة.
❖ النظرة الحانية.
❖ النظرة الخائفة.

إن كل نظرة تطلقها تؤثر سلباً أو إيجاباً على مستوى تأثيرك على الآخرين، إنها لابد أن تسجل لك أو عليك في رصيد استثمارك لشخصيتك، وقد توصلك تراكمات نظراتك إلى النجاح أو إلى الفشل، إن كثيراً من مدربي رجال المبيعات والمفاوضات يشددون على ضرورة أن

تنظر في عيون محدثك مباشرة، وعلى أن طول فترة الإتصال بالعين يعينك في التأثير على محدثك، ولكن هذه النصائح تذهب أدراج الرياح عند التطبيق العملي، لأن هناك أكثر من عامل يعتمد عليها تأثير النظرات منها طول فترة النظر، ونوعية النظرات، ومكان إصدارها الأصلي إن لكل عاطفة، ولكل حالة، ولكل موقف نظرات معينة، بل إنك ستجد بعد مراقبة نفسك عدة أيام أنك تنظر بطريقة ـ قد تكون موحدة دائمة ـ لبعض المحيطين بك، بمعنى أن نظرتك لرئيسك في العمل تختلف عن نظرتك لزميلك في العمل، وتختلف عن نظرتك إلى زوجك أو إلى شريك الحياة، أو إلى الإبن أو الإبنة، أو إلى موظف المتجر الذي تتعامل معه، ولعل شكل النظرة (البصرية) يعتمد على النظرة العامة، ومن هنا جاء الترابط بين وجهة النظر (كزاوية رؤية) ووجهة النظر كموقف، وأيضاً فإن نظرتك (البصرية والمعنوية) إلى شخص تتحدد حسب نوعية (صورته) ـ المادية والمعنوية ـ في ذهنك، وعندما تصل الأمور حدها السيء فإنك تقول عن شخص ما " انني لا أستطيع أن أراه " كتعبير عن عدم الرغبة في أي تواصل معه من أي نوع.

ولا ينبغي أن نطيل النقاش حول ما إذا كانت النظرات الصائبة مطبوعة (وراثية) أم مصنوعة (تعتمد على المؤثرات البيئية)، إذ من الملاحظ أن تحسين التناسق والتنسيق الإدراكي – البصري – الحركي عند الإنسان يمكنه من إفلات نظرات مؤثرة، بحيث يظهر التكامل بين مقومات الرسالة الاتصالية من أصوات ونظرات وحركات، أما عندما يظهر التناقض بين هذه المقومات فإن درجة الصدق، ومن ثم المصداقية تقل،

وبالـتالي تظهـر الرسـالة مشوشـة ومرتبكة، ومن هنا ينبغي الحرص على الـربط بين مختلف المؤثرات، ويمكنك مقارنة النظرات التي تصدرها عندما يكـون تنفسـك سـريعاً أو مضـطرباً أو عميقاً، وعندما تكون دقات قلبك سريعة أو بطيئة أو عادية، وكذلك عندما يكون ضغطك مرتفعاً ومنخفضاً أو عاديـاً، وعـندما تكـون أطـرافك ممدودة على استقامتها أو متقاطعة أو منثنية، وعندما يكون صوتك منخفضاً أو مرتفعاً أو عادياً، كذلك لابد من مراقبة نظرتك في ظل تنوع حالاتك الإنفعالية بين حزن وغضب، وسترى مـدى قدرتـك عـلى الـتحكم بالنظرات التي تطلقها بحيث تبدو كلك كما أراد لك الله كياناً واحداً متكاملاً.

إن الإدعـاءات الـتي (تتهم) الناس وتصنفهم ضمن قوالب جامدة وبعبارات مطلقـة تناقض واقع الحياة العملية كثيراً، ونسمع من يقول أن نظـرات فـلان حاسـدة أو مـرواغة أو عفويـة، ولكن من النادر أن تكون نظـرات الإنسـان واحـدة في مخـتلف الاماكن أو الأزمنة أو الحالات، ولو أخذنـا رزم الأوراق المالـية كموضـوع للنظر، لوجدنا أن نظرة الإنسان لها تشـي بشـيء مـا حـين تكـون هـذه الرزم في يد محاسب البنك يختلف عن دلالـتها عـندما تكـون رزم الأوراق المالـية في يد صديق أو جار، ويختلف الأمـر كلـه عـندما ينظر الإنسان إلى اوراقه المالية الخاصة به، أي أن نفس الموضـوع، ونفـس الشـخص، ونفس المكان ونفس الزمن قد لا يؤدي إلى إصـدار نظـرة واحـدة، لذلـك من المهم أن يسبق التفكير النظر، حاول أن تفكر قبل أن تنظر إلى بعض الأشياء.

إن هناك فروقاً دقيقة بين النجاح وبين الفشل، فغض البصر، مأمور به، ومن المستحب في ثقافتنا الإسلامية أن نقبل على من نحب وما نحب وأن نعرض عن كثير من المظاهر التي لا تناسب عقيدتنا، ولكن لنعترف أن هناك معضلات حقيقية تنجم عن التباين الثقافي في مختلف الأوساط، وبخاصة في حالات الإختلاط وحين يتحدث الرجال إلى النساء أو العكس، فقواعد التواصل البصري تقول إن إرساء التقارب يحتاج إلى النظر في العين مباشرة فترات تتراوح بين ٥– ١٥ ثانية، وبخاصة عند الوصول إلى منعطفات حاسمة في النقاش، أو لإثارة التركيز على بعض المسائل، ويزيد الأمر إحراجاً أن بعض الناس لا يميزون بين التركيز وبين التحديق أو الحملقة الطويلة، التي تشعر الطرف المقابل بالتعدي عليه، وأحياناً بانتهاك مجاله البصري، كما أن النظر عبر النافذة أو إلى السقف أو إلى الأرض غير مريح أيضاً، فإذا واجهتك مثل هذه المشكلة، فإن عليك أن تتذكر الإطار العقلي العام الذي يحكم سلوكك، وهدفك الأساسي من المقابلة، وتحديد ما تريده من الطرف الآخر، وبعد ذلك، حاول أن تجد لعينيك زاوية أو بقعة استراحة في نطاق وجه الطرف المقابل، وأفضل مكان هو منتصف الجبين، فهذه المنطقة لا يثير النظر إليها أي شعور بالتعدي، كما أن تمركز نظراتك فيها يساعدك على تحديد ردود الفعل أولاً بأول لأنك تظل قريباً جداً من بؤرة التركيز، إن هذه هي النظرة العلمية عند معظم الناس.

ومهما كانت طبيعة المقابلة أو هدفها، فإن رفرفة الرموش أو الإغماضات المتقطعة تودي بمصداقيتك إلى الحضيض، حيث أنها تثير إرتياب الشخص المقابل إذا كان هو الذي يتحدث في أنك تستحضر ذكريات أو خبرات بعيدة عنه، أما عندما تتحدث أنت وعيونك تغمض وتفتح لوحدها، فإن المتلقي قد لا يصدق شيئاً مما تقول، إن المعدل المقبول لعدد إغماضات العين هو ٦ – ٨ مرات في الدقيقة، أما أن زادت عن هذا الحد فإنها قد تعني النوم وانتهاء المقابلة.

وعلى الرغم من أن بعض الناس يفضلون النظر إلى المنطقة مادون العينين وما فوق النحر حتى خلال المحادثات واللقاءات التجارية، إلا أن التجول البصري في هذه المنطقة يعني بداية الخروج من مساحات العمل والفكر والتوجه نحو العلاقات الإجتماعية الأكثر حميمة، وكلما نزلت النظرات إلى أسفل كلما كان يتم البحث عن شخصية المسائل بل وعن توجيهها توجهاً بيولوجياً.

وهناك عوامل أخرى تساعد في تقوية أو إضعاف الرسالة البصرية المطلوبة وبخاصة عند استعمال النظارت التي تعتبر أحياناً عيوناً إضافية وبخاصة عندما تكون عدساتها شفافة، حيث يمكن أن تساعد في إيجاد تأثير عاطفي إيجابي من حيث أنها قد تؤدي إلى تخفيف الإضاءة عن بؤبؤ العين مما يؤدي إلى اتساعه، ولكن النظرة التأديبية التي يلجأ إليها البعض من فوق النظارات تثير مشاعر من عدم الإرتياح، وتذكرنا بتلقي العقاب، أما الأسوأ منها فهو وضع نظارات سوداء خلال أي لقاء ومع أنه يقال إن

بعض رجال الأعمال ـ مثل اليوناني أو ناسيس ـ كان يضع نظارات سوداء على عيونه أثناء إجراء المحادثات والمفاوضات التجارية كي لا يتعرف المشاركون إلى ما يفكر به فعلاً، إلا أن النظارات القاتمة صارت شيئاً من مخلفات الماضي، وتثير مشاعر الخوف من التغطية والإزدواجية في المواقف في وقت يتجه فيه العالم – ولو نظرياً على الأقل – إلى الشفافية والوضوح.

كذلك فإن الإضاءة القوية توتر بؤبؤ العين وتجعله يضيق ولا يشي بالتعبيرات الحقيقية التي يراد توصيلها عبر العيون، ولذلك يحرص بعض الناس على توجيه الإضاءة إلى وجوه محدثيهم، ويمكنك طلب تخفيف الإضاءة، فإذا لم تستطع فتعامل مع الضوء كما تتعامل مع الكاميرا، أي اعتبر الضوء وسيلة مراقبة وتجنبه مع وعيك على وجوده، تماماً كما يحدث عند تصوير مقابلة تلفزيونية، فأنت لا تتوجه إلى الكاميرا، لأنها غير موجودة للحديث معك بل لمراقبتك.

الانسان مقابل الحيوان

إياك ان تنجر الى الغابة

كثيراً ما نسمع إنساناً يصف إنساناً آخر على واحد أو أكثر من الوجوه التالية :-

- ❖ انه مراوغ مثل ثعلب.
- ❖ انه صبور كالجمل.
- ❖ انه شجاع كأسد.
- ❖ إنها مثل أفعى.
- ❖ انه كالدب يقتل صاحبه.
- ❖ انه وديع كأرنب.
- ❖ انه مذعور كفأر.
- ❖ انه نسناس.
- ❖ انه كلب.
- ❖ انه بغبغاء.
- ❖ إنها غزال.
- ❖ انه حمار.

❖ انه كالثور الهائج.

❖ انه قوي كبغل.

❖ انه مستكين كدجاجة.

❖ انه ثاني عطفه نافش ريشه كديك.

❖ إن له خيلاء طاووس.

❖ انه كالسبع.

❖ انه ذئب بشري.

❖ انه أصيل كجواد.

❖ انه تيس.

❖ انه حمامة (سلام).

❖ انه قرد (كثير الحركة.

❖ انه ينق مثل ضفدع.

❖ إنها متعالية مثل زرافة.

❖ انه مطرب مثل كروان.

❖ انه يغرد مثل بلبل.

❖ انه حمار عمل.

❖ إنها أليفة مثل قطة.



لماذا يتم أحياناً تشبيه الإنسان بحيوان ما ؟ أو تشبيه سلوكه بهذا الحيوان أو ذاك ؟.

يحصل ذلك من باب التحبب ورفع الكلفة في الحديث، فهذا الطفل وادع مثل أرنوب، أوسمين كدبدوب، (تصغيرأرنب ودب)، ويحصل أحيانا من باب الإطراء والمديح من حيث الشجاعة (فلان كأسد) أو تحمل الصعاب (انه كالجمل).

ولكن تشبيه الإنسان بالحيوان يأتيإحياناً عقاباً له على سلوك شائن أو غير مقبول، وذلك من باب الاستياء الشديد والخروج عن هدوء النفس.

وفي كل الأحوال، فإن تشبيه الإنسان بالحيوان إشارة واضحة إلى فقدان القواعد الإنسانية المتعارف عليها من عقل أو خلق أو عاطفة، الأمر الذي يجعل الأمور تفقد توازنها المعتاد، ونجد في القرآن الكريم أوصافاً مقذعة لمن خانوا أماناتهم كما في الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[1] قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَآءَ ۞ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة البقرة الآية (٦٥).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٧٦-١٧٧).

كـذا في الآيـة ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(1) إنهـا آيـات تعبر عن إساءة حمل الإنسان لأمانته المكلف بها شرعاً من خالقه كما هناك أمثلة تصور شناعة بعض السلوكيات من أجل أن يتجنبها الإنسان ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾(2) وكما لاحظنا فإن توضيح الحالة أو السلوك ممكن، ولكن لم أجد تشبيهاً لإنسان محدد بأنه صوت حمار، إنما جاءت التشبيهات من باب توضيح بشاعة سلوك ما وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾(3) ولا نجد في الآية اسماً محدداً، ولكننا نجد توضيحاً للحالة من حيث عدم استخدام هذه النعم من قلوب وعيون وآذان، مما يجعل الإنسان غافلاً (غير قادر على الإنتباه) والتلقي.

أما تشبيه الإنسان بالحيوان لأسباب الغمز واللمز أو السخرية فمنهي عنها شرعاً: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(4)، وأيضاً: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾(5).

(1) سورة الجمعة الآية (5).

(2) سورة لقمان الآية (19).

(3) سورة الأعراف الآية (179).

(4) سورة الحجرات الآية (11).

(5) سورة الحجرات الآية (12).

إن الفرق بين الحالتين واضح، ولا يجوز تشبيه إنسان معين بأي حيوان لأي غرض، أمـا تشبيه سلوك ما على إطلاقه من دون تحديد صريح بالإسم فأمر آخر كما لاحظنا.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن نعت إنسان بأنه حيوان ما، لا يريح المتلقي ولا يقنعه، بل إنـه قد يجعله ينفر من المتحدث، ولو استمع إليه على مضض، إلا أن هذه النعوت ستجعله ينفض

ويرفض الفكرة الملقاة إليه وبهذا فإن من يطلق مثل هذه النعوت على الناس، يحرم نفسه من فرصة التأثير على الآخرين واقناعهم بتبني وجهات نظره، أو مواقفه حيال الأشخاص الذين يهاجمهم.

والله سبحانه وتعالى أمر سيدنا موسى وأخاه هارون بأن يقولا لفرعونْ قولاً ليناً على عتوه وطغيانه، كذلك لا ينبغي الرد بالمثل على مثل هذه الإساءات إذا تعرض لها الإنسان من أي جاهل، لأننا مأمورون بأن نأخذ العفو ونأمر بالمعروف ونعرض عن الجاهلين.

وهناك طائفة من الناس لا تلجأ إلى إطلاق النعوت على الأشخاص، ولكنها تحاول أن تصفهم في صفاتهم حسب أوصاف بعض الحيوانات، ولا تخلو جلسات التقييم أو الاجتماعات من ورود أفكار يتم التعبير عنها على أحد الوجوه التالية على سبيل المثال:

- لقد ظل جالساً في الإجتماع كالثعلب محاولاً استدراج الجميع إلى أهداف غير معلنة !

- إنه أشبه بضفدع، فقد كان يتقافز على مائدة الحوار من موضوع إلى موضـوع، يهرف بما لا يعرف، ويدقق في الإجراءات الشكلية دون أن أستطيع حسم أي أمر ذي بال معه.

- لقـد ظلـت متعالـية كالـزرافة، تنتقي كلماتها بحرص، ولم أفلح في جعلها تنزل إلى أرض الواقع.

- لقـد دوخـني وأنـا ألهـث وراءه وهو يقفز كالغزال، عقله في ساحة وسـاقه في سـباق مـع أذنـه، خـائف ومخـيف، مـتوتر ويثير التوتر والترقب، ولم يسمح لي بإكمال جملة واحدة مفيدة طيلة الجلسة.

- لقـد بـدا مسـيطراً كالأسـد، ولم يتردد في الإعلان عن أنه يتحدث بأسم أغلبية الأسهم التي يمتلكها.

- لقـد عرضت عليه كل ما لدي، وظل مكانه طيلة الوقت، يمد عنقه كالجمل محاولاً معرفة المزيد دون أن يطرح أي اقتراح.

إن المـتحدث في هـذه الحالة يحاول أن يوضح الصورة التي يريد أن ينقـلها، ولكـنه يثقلها، لأنه فور أن يطرح أسم حيوان معين، فإنه ينقل تفكـيره – ومن معه – إلى ذلك الحيوان، مما يجعل الصورة التي ينقلها أقل مصـداقية، ولذلـك لا تجعـل أحـداً يسـتدرجك إلى الغابة، بل رد الطرف المقـابل إلى المجتمع فوراً تكسب المزيد من التأثير على من حولك، بدل أن تتأثر بمبالغات قد لا تكون حقيقية.

التواصل اللفظي

من البداية إلى النهاية

تحتاج في بداية أي لقاء إلى أن تنادي الطرف المواجه لك، وسواء كان الأمر يتعلق بمقابلة، أم مداخلة أثناء حديث ما، أم مجرد طلب خدمة أو طرح سؤال، أو عند التواصل الكتابي من خلال الرسائل أو غيرها.

فكر في البدائل التالية، وحاول أن تتذكر أيها سبب لك إحراجاً ما أو سوء فهم أو أثار مشكلة.

- أخ زيد
- يا أخ زيد
- أخ زيد
- يا أخي زيد
- السيد زيد / باسمه الأول / باسم عائلته
- سيدي
- الدكتور زيد
- المهندس زيد

- سعادة السيد زيد
- سعادة الأخ / السيد / المهندس / الدكتور زيد
- عطوفة الأخ / السيد / المهندس / الدكتور زيد / عطوفتك
- معالي الأخ / السيد / المهندس / الدكتور زيد / معاليك
- زيد بيك / زيد باشا
- حضرتك
- سعادة / عطوفة / معالي / دولة / أبا عمرو
- الزميل فلان / أبا فلان
- الرفيق فلان / أبا فلان
- ياعم – عمي – عماه
- يا خال – يا خالي
- أستاذ / أستاذي
- يا صديق / يا صديقي
- يا صاحبي

هـذه بعـض وسـائل النداء إذا كان المقابل ذكراً، أما إذا كانت من تقـابلك أنثى فإن عليك الإختيار من بدائل أكثر تعدداً، لأن الرجل يمكن أن تـناديه بالسـيد (وتستريح)، أما المرأة فأنت لا تدري إن كانت آنسة أو سـيدة أو مـدام وهي قد ترتاح لكمة أخت، وقد يبدو عليها الإعراض إذا ما استعملت كلمة أخت للنداء عليها أما الكنية فلها حديث آخر:

- فقـد تفـيد في تحديـد المـنادى علـيه، إذ يحصل عدة أشخاص كلهم أسمـه محمـد أو أحمد، وعندها تلجأ إلى الكنية فهذا أبو زيد، وذاك أبـو عمـرو، وذاك أبـو فلان، ولكن، ما الحيلة إذا كانوا كلهم آباء لنفس الاسم؟
- وقـد تسـتخدم الكنـية للتحبب والتقريب، وبعض الناس قد ينأى بجانـبه إذا ناديته باسمه المجرد، ولذلك يلجأ البعض منا إلى السؤال عن الكنية وإن كان يعرف الإسم.

لابد من التذكير بالصور التالية، سواء كنت مرسلاً للنداء أم متلقياً له:

- سليمان عليه السلام خاطب ملكة سبأ : إنه من سليمان...
- كـان ليوسف عليه السلام(اخوة) وكان له (صاحبان) في السجن، ما الفارق بين الأخ والصاحب؟
- الله سـبحانه وتعـالى لم يخاطب أي نبي بكنيته، والكنية الوحيدة التي نجدها في القرآن الكريم هي لأبي لهب

إن مـن المهـم أن نفـرز البسـاطة والوضـوح والتواضـع والمساواة بشـكل تدريجي، وبحيث لا نستفز الطرف المقابل أو نستعديه أو نجبره على اتخـاذ موقـف دفـاعي، فالـنداء يهدف إلى شد انتباه المنادى، لا إلى تشتيته، وإذا إن مـن المهـم أن نـنادي الـناس بما يحبون أن ينادوا به، فإن من المهم أيضـاً أن نذكـر أن الإسم الأول المجرد من المفروض أن يكون كافياً لإثارة انتـباه الشـخص إذا نـودي بـه، وأن النجاح في الوصول إلى مرحلة مناداة الشـخص باسمـه الأول تشـكل إنجازاً تواصلياً ثميناً، يجعلنا أكثر صراحة ونديـة وودية، وأقل نفاقاً وارتباطاً تجاه ما سنقول بعد هذا النداء ولنتذكر: النداء الأول له أهمية الانطباع الأول.

الجمل الاستهلالية :-

لا يحـب كـثير مـنا أن يـبدأ حديـثه مباشرة، بل يلجأ إلى استخدام تعـبيرات اسـتهلالية يفـتـتح بهـا حديـثه، ومـع تكـرار اسـتخدامها يغـدو اسـتعمال هـذه الكـلمات جـزءاً مـن شخصيته، وإذا تكررت خلال لقاء واحـد فإنهـا قـد تعطـي انطباعاً عن شخصية نمطية مقولبة. وبسبب كثرة المـزالق الـتي قـد يـنطوي علـيها اسـتخدام هـذه اللوازم اللغوية، فإن من الأفضـل أن نتخـلى عـنها تدريجياً حتى نتخلص منها نهائياً ونتعود على طرق الموضوع مباشرة، إن بعض الاستهلالات تعطي انطباعاً وتصلب.

ولنفكر في بعض هذه الاستهلالات :-

- تقتحم أحياناً جدول مواعيد شخص ما، وتقرر الذهاب إليه وفور أن تجلس في مكتبه أو بيته تبادر إلى القول: "لقد كنت ماراً من هنا / بالصدفة أو لرؤية شخص آخر / ورأيت أن أعرج عليك للسلام".

تبدو الكلمات بسيطة ولكنها تحمل مغزيين:

اولهما: أن هذا الشخص غير مهم بالنسبة لك.

وثانيهما: أنك تكذب، فهناك موضوع آخر هو الذي جعلك تطرق بابه.

- بعد حوار ودوار تحاول تلخيص الموقف أو تحديد موقف ما فتبادر إلى القول: " والآن دعنا نتكلم بصراحة" واضح أن هذا الاستهلال يشير إلى أن الحديث السابق لم يكن صريحاً فلماذا تضييع الوقت فيه وعليه ؟.

- بعد أن يشرح الشخص المقابل وجهة نظره فإنك تبادر إلى القول: إنني أريد أن أوضح نقطة على غاية من الأهمية..."

مثل هذه العبارات تبين أنك شخص متصلب، وإلا فلماذا لم تترك للطرف الآخر فرصة تحديد موقفه من النقطة إلى ما بعد إنتهائك من عرضها ؟ إنك أشبه بالمذيع الذي يقطع برنامجاً ليقول " جاءني الآن هذا النبأ الهام". وما ضره لو قال جاءني النبأ التالي " ويترك للمتلقي أن يحدد ما إذا كان النبأ هاماً أم لا.

- ما إن تشرع في توضيح موقفك حتى تقول: "إنني أعتقد..."

انك لم تقدم أية معلومات، ولم تطرح أية مفاهيم، ودخلت في مدار المعتقدات، وهنا فإن مساحات الاختيار تتقلص إذ ليس لدينا (عقائد) كثيرة نتبناها، وهنا توصل محدثك إلى الحد الفاصل الذي عليه أن يختار معه إما أن يكون معك، أو أن لا يكون.

- ما أن ينهي محدثك جملة ما حتى تبادر – بل قد تقاطعه قائلاً: "إن هذا ليس صحيحاً..."

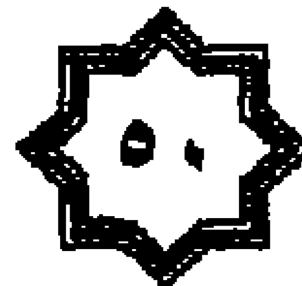
انك تبحث عن نقاط الاختلاف لا عن نقاط الاتفاق، ويمكنك بدلاً من ذلك أن تبدأ بتجسيد أية نقطة اتفاق أو استحسان، مقللاً ما أمكن من عبارات وأدوات النفي لصالح أدوات الإستدراك : "إن هذا صحيح، ولكن هناك...."

إن تصيد الأخطاء يجعل بعض الناس معانداً إلى درجة أنه يريد أن يقول لمحدثه... "إن ما ستقوله – مع أنني لا أعرفه ـ إلا أنه خطأ" تريد أن تنفي (العقلانية) عن حديث صاحبك فتقول : "إن هذا حديث عاطفي.." أو "إنك عاطفي "أو إن قلبك يتحكم بك.

علينا أن ننتبه إلى أن العاطفة، والعاطفية ليست ولا يمكن أن تكون عيباً، وحتى في العمل التجاري، فإن الأبحاث تشير – والواقع يثبت أننا نتخذ قرارات الشراء بالعاطفة ثم نبررها بالعقل، أما في ثقافتنا الإسلامية، فلا يوجد هذا الفصل التعسفي أصلاً بين قرارات القلب والعقل قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[1] وكذلك "فإنها لا تعمى الأبصار

---

(١) سورة الصف الآية (٥).



ولكـن تعمـى القلـوب التي في الصدور" وغير ذلك كثير، بل إنه سبحانه وتعـالي يـبين لـنا في غـير موضـع ممـن كتابه الكريم أنه يرينا البرق خوفاً وطمعـاً، والخـوف والطمـع مشاعر وعواطف، (والتعاطف) مع الآخرين ركن ركين من عناصر التأثير فيهم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1] تـريد أن تفند ماقاله صاحبك فـتقول : "إنك على خطأ" وماذا تخسر لو أنك خطأت القول وليس القائل إذا كـان لابـد من التعنيف "إن قولك فيه خطأ..." أو كنت أقل هجومية: "يبدو هذا القول غير مناسب".

- تـريد أن تشـجع شخصاً على الإدلاء بدلوه في موضوع ما فتقول "لاشـك أن لديـك أفكـاراً ذات شـأن في هـذا الموضـوع..." كيف حكمـت عـلى أنهـا ذات شـأن ؟ لماذا هذه المداهنة ؟ طالما يمكنك طلب وجهة نظره مباشرة في هذا الشأن.

ولا يتسـع المجـال لذكـر كل الاستهلالات غير المناسبة، وبالمناسبة، فإنـنا قـد نعتبر مثل هذه الأقوال مناسبة إن صدرت منا، ولكننا لا نعتبرها كذلـك حين تصدر عن غيرنا، الأمر الذي يوجب على أحدنا أن يدقق في كلماته الاستهلالية وأن يراقب نفسه جيداً بحيث يتجنب أية استهلالات أو نقاشـات تهـدف إلى تسـجيل النقاط فقط لأن الحوار ليس لعبة لابد فيها مـن غالـب ومغلـوب، بـل هـي تمـرين تفكيري وجداني يهدف إلى إثراء خبراتنا وخبرات الآخرين.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

التواصل السمعي

التفاعل الحيوي

لم يأت التركيز على التواصل السمعي عبثاً، حيث أن ثقافتنا العربية هي ثقافة سمعية أساساً، ولم ترد كلمة البصير قبل السميع في آية من آيات كتاب الله عز وجل، ولعل الأمر لا يتعلق بأسبقية تكون جهازي السمع والبصر، لأنه سبحانه وتعالى قدر ربطهما معاً بما يوحي لنا بتنسيق عمل الحاستين معاً، أو التناسق السمعي – البصري.

إن واقع الحياة اليومية يؤثر على أن الكلمة والسمع أو التواصل اللغوي، أو اللفظي، أو الشفهي، أو الكلامي، أو المنطوق، أو البياني لا يزال يمثل المرتبة الأولى من حيث تكرارية الحدوث، ومن حيث التأثير

(كماً ونوعاً) بخلاف كل ما يدعيه الآخرون عن أهمية حركات الجسم وإيماءاته (على أهميتها)، وبخلاف ما تدعيه بعض وسائل الإعلام من أن الأهمية الأولى أصبحت للصورة لا للكلمة فالصورة لا تحتاج إلى ترجمة، ولا تحتمل التأويل ولا تكذب، ولكن هؤلاء لا يلاحظون أن الكلام هو الذي يشكل إطار الصورة، ولو أن الأمور يمكن أن تستقيم بنشاط واحد، فلماذا أتعب صناع الإعلام أنفسهم من أجل إنطاق السينما مثلاً بدل أن تظل إيمائية!

في مجـال الـتأثير لابـد من استخدام كل الوسائل المتاحة من سمع وبصر وأفئدة وإيماءات، ولا يمكن القول إن هذا النوع من الإتصال أفضل مـن غـيره فأي خطأ لفظي قد يؤدي برسالة اتصالية كاملة ويجعلها عرضة للفشـل، فـالأداء الإنساني يقوم على استغلال الإمكانات المتاحة وتفعيل القدرات الكامنة وهو بحاجة إلى التكامل لا إلى التناقض.

إن كلمة ـ قول ـ باشتقاقاتها المختلفة قد وردت في نحو من ١٧٢٦ موضع في القرآن الكريم ويمكننا أن نتعلم من الآيات التي وردت فيها هذه المـادة كـل أسـاليب الحـوار والإقناع والدعوة وبالتالي التأثير، إذ أن بداية الدعـوة هـي القـول: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)، أما مواد البيان، واللسان، والنطق الحديث والدعـوة فلا يتسع المجال لاستعراضها، ويعلمنا التركيز على الكلمة كيف نـواءم بـين القول اللين والصراحة والوضوح في تحديد الموقف، والصدق قـبل المصداقية، (الكلمة) في اللسان العربي ليست مجرد أداة ناقلة للفكرة، بـل إنهـا تصبح جزءاً من الرسالة "إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون"(٢) هـذا: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٣)، ولـولا ذلـك مـا ركـز سيدنا موسى عليه السـلام في دعائه ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۞ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (٤) وتخوفه

(١) سورة فصلت الآية (٣٣).

(٢) سورة الزخرف الآية (٢١).

(٣) سورة الشعراء الآية (١٩٥).

(٤) سورة طه الآية (٢٧-٢٨).

من أن ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ [1] وكذلك نستذكر دعاءه ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ [2].

حقاً إن كثيراً من الناس تسبق كلماتهم أفكارهم، وهناك أناس يقولون مالا يفعلون فيستحقون مقت الله سبحانه ن ولكن أية اختلالات لدى أي فرد أو قوم لا تلغي أهمية الكلمة، ووحدتها مع الفكرة، والنظرة في نسيج كلي متكامل.

إننا نسمع كثيراً من الناجحين في شتى مناحي الحياة يقولون انهم لا يتمتعون بطلاقة لغوية جيدة، وأنهم لا يجيدون الخطابات، ولا يحبون الأقوال ولكنهم يحبون الأفعال، ولكن هؤلاء لا يعرفون أنفسهم جيداً، وإن كانوا ناجحين على المستوى الواقعي الملموس في حياتهم الشخصية، لأن كل نجاح لابد له من تفكير، والتفكير في معظمه حديث غير منطوق مع النفس، إن كل ناجح يجيد الكلام، ولكن الاختلاف يحصل في نوعية الكلام، ونوعية الوسط الذي يتحدث فيه، فمن يتحدث مع نفسه بحاجة إلى قدرات تختلف عمن يتحدث مع شخص آخر، أو أمام جمع من الناس، وفي كل الأحوال فإن المقدرة على البيان الجيد سواء مع النفس أو أمام الآخرين ليست مجرد قدرة على "صف الكلام" كما يقولون، وإنما هي تشتمل على :ـ

- وجود فكرة ما مطلوب توصيلها.
- قدرة على تحليل المعلومات السابقة (في الميدان)، وبخاصة في الحوار.

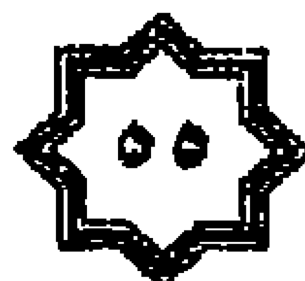
---

(١) سورة الشعراء الآية (١٣).

(٢) سورة القصص الآية (٣٤).

- قدرة على التقييم والتقويم والحكم على الأمور والمعلومات.
- قدرة على التذكر لربط الخبرات والمعلومات.
- قدرة على التخيل للخروج من الحالة المطروحة إلى حالات أخرى أكثر عمومية أو تخصصاً.
- قدرة على الإبداع الذي يظهر على شكل : فكرة / تصور جديد / رؤيا جديدة قد تظهر فوراً أو بعد حين.
- مفارقة أو طرفة – بيانية – عقلية.

وكلما كان الحصول على إنتاج هذه المواد سريعاً، كلما قلنا عن الشخص إنه حاضر البديهة، أو لماح، وأحيانا ذكي يستطيع أن يحل مشاكله، ومشاكله مع غيره بكفاءة أو بأقل قدر من الخسائر. حيث يقدر بعض الباحثين أن ٧٠% من الخلافات يمكن حلها بالتوضيح والإتصال، و ٢٠ % تحتاج إلى مفاوضات متعبة، وماذا بقي ؟ ١٠% ؟ من الممكن التعايش مع هذه النسبة في أي وسط، وهكذا فإن التحدي الحقيقي هو في القدرة على التواصل البياني، وليس الصمت من ذهب دائماً، وإن كان هناك أشخاص يعتبرون الصمت أفضل عمل من الممكن أن يقوموا به، إلا أن كل ما في الحياة يحتاج إلى بيان وتوضيح ودعوة ما سواء كانت الغاية عاجلة أم آجلة، دنيوية أم آخروية.



إن الحديث والكلام والتواصل البياني ذو شجون، ولكننا يمكن أن نصنف أي حوار أو اتصال بشكل غائي أي حسب الغاية منه ضمن ثلاث خانات :ـ

الأولى: خانة الإتفاق (الأيجابية)

الثانية: خانة الحياد (الصفـــر)

الثالثة: خانة الخلاف (السلبية)

فهـل حاولـت يوماً أن تـلخص اتصـالاتك بوضع ملاحظة على شكل اتصال منها حسب النتيجة التي توصلت إليها، أو التي تريدها:

حيـــاد	اتفـــاق	اتفـاق
حيـــاد	اختـــلاف	اتفـاق
حيـــاد	اختـــلاف	اختلاف
خـلاف	خـــلاف	اتفـاق
اتفـاق	خـــلاف	اتفـاق
خـلاف	خـــلاف	خـلاف
خـلاف	اتفـــاق	اتفـــاق
اتفـاق	اتفـــاق	اتفـــاق

ولـك أن تفكـر بتقسيمات أخرى، المهم أن تحدد متى تختلف مع الآخـرين ومـتى تتفق ؟ متى تتصالح مع نفسك ؟ ومتى تحاسبها ؟ ومتى يستحيل التفاهم ؟ وهـل التصـالح ـ الإتفاق ـ هو توازن مصالح مادية ملموسـة ؟ أم توازٍ في الإهتمامات والمواقف ؟ أم العواطف ؟ متى تكون منتجاً أثناء الحوار ؟ ومتى يكون الحوار عقيماً؟

وبناء على إجاباتك فإنك سوف تستطيع البدء بتكوين استراتيجية أساسية للتواصل مع نفسك ومع الآخرين؟

وعليك في كـل ذلـك أن تنتـبه إلى الكـتابة وتدويـن ملاحظـاتك الأساسية، وستجد أنك أفضل معلم لنفسك، وتمعن

دائمـاً في كـلمات سـورة (اقرأ)، وتابع خطواتها، عندما تحاول أن تتواصل مع الآخرين :

- **اقرأ:** كـل أنواع القراءة فقد جاءت على اطلاقها بمختلف صورها وأشـكالها، وهكـذا.... فقراءة كلمـات مطبوعة هي قراءة، وقراءة الوجـوه والعيون هي قراءة، والتأمـل فـي الذات وفي المحيط قراءة صامتة، إنها المساحة الأوسع لجمع المعلومات جميعاً.

- **علق:** لمـاذا تـتعلق بهـذا العمـل دون غـيره، أو بهذا الإنسان دون غـيره؟ أو بهـذه المديـنة دون غيرهـــا؟ أو بهـذا الـبلد؟ أو تلـك الجماعـة؟ أو هـذه الفكـرة ؟ أو هذا التصور ؟ متى يتعلق الأفراد ببعضهم ؟ والجماعات؟.

هـل الهـدف دائمـاً هو التعلق بما هو قائم من أجل استمرار الحياة من التعلق بجدار الرحم وحتى التعلق بالولد؟ أم الهدف الصعود إلى أعلى وتحسـين مسـتوى الحـياة وتحقـيق الـذات؟ وتذكر أن التعلق أشد وأشمل درجات التأثير.

- **بالقلم:** لابـد مـع الملاحظـة والقـراءة من التدوين بالقلم، فالخط السـيء أفضـل مـن الذاكـرة المـتازة، وكـل ما سبق سيكون مجرد أفكـار تـدور في الـرأس دون تطبـيق عملـي، إن لم يـتم تسـجيلها والتعلم منها، فالقلم هو وسيلة علم لايحد وهو أصل المنافع كلها، فربـنا سمى نفسه (الأكرم) بهذه النعمة التي تفوق كل ماعداها من موجودات مادية أخرى سخرها لنا.

- **ليطغى:** مـتى يـرفض الإنسان ما هو أمامه ؟ ومتى يطغى ؟ إن ذلـك مرتـبط بانـتهاء حالـة الـتعلق (ذهنـيا)، وبمجـرد أن يشـعر بالاسـتغناء، فإنـه يطغى، فما هي المسافة بين الإكتفاء الذاتي وبين الطغـيان ؟ كيف ينطبق ذلك على الأفراد والدول في كل الحالات ؟ كـيف تسـتطيع جـذب الطرف المقابل بحيث لا يطغى ؟ أين هي حـدود مسؤوليتك الدينية عن ذلك ؟ وكيف تحققها ؟ وكيف تبني جسر التواصل معه بشكل مفيـد ومنتج للإثنين؟.

كـيف تنقله من حالة السلبية أو الاختلاف إلى حالة الإتفاق ؟ مع إدراك أن ذلك غير ممكن دائماً، لأن رؤية الطرف الآخر مهمة فاعلة وغير قابلـة للإلغـاء ؟ فهـو يقـوم بسلوك الطغيان عندمـا (يرى) أنه استغنى !

وهكـذا تسـتطيع أن تحصـر دائرة علاقاتك بعد أن تعرف لماذا يتفق الناس معـك؟ ولمـاذا يخـتلفون؟ ومتى يقفون على الحياد ؟ ومتى يصبح الصراع مكشـوفاً؟ ويمكـنك في كـل الأحـوال أن تسـأل الآخـر وأن تحصـل على معلومـات مـرتدة (feedback) ومعلومـات جديـدة (input)لاسـتراتيجية تعيـنك على تشكيل صورة عامة تحدد لك طرق التقديم لرسالتك، وطرق عرضـها وطـرق الإغـلاق للوصـول إلى النتيجة المطلوبة، وكل هذه تقوم على الإتصال البياني المنطوق، فإذا كنت مندوب مبيعات، فإن سلعتك لن تبـيع نفسـها، ووسائل الإيضاح لن توضح نفسها ومظهرك لن يبيع شيئاً، بـل إن لسـانك هـو سـلاحك الأمضـى، عندما يعمل ضمن المعادلة التي خلقهـا الله له بتنسـيق بـين السـمع والبصـر والفـؤاد، والمحـامي مثله مثل مـندوب المبـيعات، لا يمكن أن يضع أدلته المادية على مائدة القضاة ويلوذ بالصمت؟ وكذلك السياسي والإعلامي، والطبيب والمدرس. إن الإرسال والاسـتقبال البـياني هما سبيل عرض ما لديك، والحصول على المزيد مما عـند الآخـرين، وإذا أردت أن تحصـل عـلى إجابات جيدة فإن عليك أن تطـرح أسـئلة جيدة، وأن تتجنـب قدر الإمكان طرح الأسئلة التي تعتمد إجابتها على النفي أو الإيجاب فقط (التي تكون أجوبتها مجرد كلمة أما نعم وإما لا) بل عليك أن تلجأ إلى الأسئلة المفتوحة، التي تمكن متلقي السؤال من تقديم ما عنده، وطرح أفكاره ومعلوماته، وقد قيل "إن حسن السؤال نصف العلم".

إن التدرب على التواصل اللفظي يختلف عن التدرب على الخطابة، فالخطابة هي عمل قد تقوم به ذات يوم، أما التواصل اللفظي فإنه عمل يجب أن تقوم به كل يوم، فإذا لم تكن ملكة الخطابة متوفرة لديك، وإذا لم تكن خطيباً مفوهاً، فلا تجعل ذلك يقعدك عن إتقان مهارات التواصل اللفظي.

أما كتب تعليم فنون الخطابة فهي لا تفيد كثيراً في مجال تحسين التواصل، لأنها تنقسم بين كتب مترجمة عن الإنجليزية، وما يصلح للإنجليزية قد لا يكون ملائماً للعربية، أو كتب عربية تركز على الناحية الميكانيكية للخطاب، وليس على الخطاب كرسالة متكاملة، كما أن كثيراً من النصائح التقليدية للخطابة التقليدية لم يعد لها سوق في هذه الأيام، لقد كان يتم تعليمنا سابقاً أن الصوت يجب أن يكون جهورياً، ولكننا أصبحنا نركز الآن على الوضوح وليس الجهورية، كما أن الحركات التقليدية للخطابة (أيام زمان) لم تعد مناسبة لهذه الأيام، فالتلويح بالقبضات، والمبالغة في تحية الجمهور برفع اليد، وغير ذلك من حركات تقليدية لم تعد مجدية في عالم اليوم حتى في أيام الحروب والتعبئة، وما نشاهده من لجوء البعض إلى الصراخ لا يدل إلا على الفشل كما قالت العرب قديماً.

ولا يعني ما سبق إهمال الصوت كناقل للكلمات والأفكار والمواقف والعواطف وإنما يمكن القول إن ما يمكن للإنسان أن يغيره من بصمة صوته قليل جداً، إذا ما تم قياسه على مقياس المطربين مثلاً، على حين أن الناحية الوظائفية للصورة يمكن تحسينها إلى درجة كبيرة بالتعلم

والمران، وهذا من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان، حيث يمكن للإنسان أن يختبر صوته بينه وبين نفسه، أو أمام آلة تسجيل أو بمساعدة أحد المقربين منه، وعندما يبدأ بتلقي ردود الفعل من الأشخاص الذين يتعاملون معه حول تحسن أدائه الصوتي فأن العملية تكون قد نجحت.

إن بعض الباحثين يوصون الشخص بأن يراقب أداء الشخصيات العامة المميزة، ويحاول تقليد أصواتها أو حركاتها، ولكن هذه لعبة مكشوفة قد تثير الإستهزاء أحياناً، لأن الطرف المقابل، كائناً من كان ومهما كانت العلاقة، إنما يريد أن يسمع صوتك أنت والطاقة التي حباها الله لك في صوتك مميزة وكافية لك كي تقوم بأدائك على حسن وجه، ولكن كل ذلك لا يمنع من ملاحظة بعض الأمور:

حاول أن تضفي على صوتك بسمة هادئة، ويختلف الباحثون حول الأسلوب الأكثر ملائمة لجعل الصوت مبتسماً، ولكنهم يتفقون على أن البسمة الميكانيكية / الصفراء / المزيفة لا تستطيع الدخول على الصوت والتأثير فيه، ويرى البعض أنك بالإمكان أن تتخيل وجود تفاحتين على وجنتيك وأنه مطلوب منك رفعهما للأعلى من دون أن تسقطهما، وهنا يمكن لمن يسمعك عبر الهاتف أن يشاهد بسمتك من صوتك، ولكن الأقرب إلى الواقع هو أن تحاول أن تبدأ البسمة من عينيك، وتنزل بها تدريجيا إلى شفتيك، وستكتشف عندما تتمرن على ذلك، أن هذه بسمة صادقة، تظهر اندهاشاً محبباً في العينين، وتضفي على المتلقي دفئاً في العلاقة وتشجيعاً على أن يتابع حديثه، حتى لو كان الحديث يجري عبر الهاتف.

حافظ على هدوء صوتك، بأن تحتفظ بكمية كافية من الهواء في داخلك، ويمكنك استغلال فترات الإصغاء التي تكون تستمع فيها للطرف المقابل، كي تأخذ نفساً عميقاً من الأنف حتى أبعد مسافة ممكنة في البطن، ثم تخرج الهواء تدريجياً من بين الشفتين، إن هذه الحركة البسيطة توفر لك كمية كافية من الأوكسجين تعينك على ترتيب أفكارك بهدوء كما أنها تساعد على خفض منسوب التوتر الإنفعالي أو العاطفي، وبخاصة أثناء المحادثات الحرجة، وتعطي للمتلقي شعوراً بالإتزان يحاول تلقائياً أن يحاكيه، وهكذا، تتخلص من العصبية المزعجة.

ومن عادة المقاطعة السريعة الفجة لمن يتحدث معك، لأنك على الأقل بحاجة لأن تأخذ نفساً عميقاً مما يسمح لك بأن تدعه يكمل جملته دون مقاطعة منك، إن التشنج والعصبية هما انفعالان ينتقلان بالعدوى السريعة، فسرعة تنفسك، تجعل الشخص المقابل سريع التنفس، وعصبيتك تجعله عصبياً وأية كمية إضافية من الهواء تدخلها إلى رئتيك، سوف تجعلك تقود زمام الأمور وتسيطر على الإنفعالات العصبية الضارة بك وبمحدثك، ولعل من المفيد أن نذكر هنا أن القدرة على استيعاب الآخر واستيعاب المواقف ترتبط في موروثنا الإسلامي بسعة الصدر وانشراحه، فقد منّ الله سبحانه وتعالى على رسوله بذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1].

---

(١) سورة الشرح الآية (١).

وفي آية أخرى بقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] ولعله الضيق الناجم عن انخفاض الضغط الجوي، والذي يجعل الإنسان يشعر بالضيق، وأنه في وضع حرج لايستطيع معه السيطرة على عواطفه وانفعالاته.

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٥).

الثروة اللغوية

مهما كان مخزون جعبتك اللغوية، فإنها تظل بحاجة إلى الإضافة اليومية، الأمر الذي لابد معه من مواصلة القراءة، ولكن أية قراءة؟

١- لن تجد كتاباً متكاملاً يمكنك الركون إلى مفرداته مثل القرآن الكريم، فأضف ما استطعت إلى لغتك اليومية من هذه المفردات فمهما كانت طبيعة عملك أو رسالتك، فإن المفردات القرآنية تعلو ولا يعلى عليها، ولا يمكن أن يقال لك إن هذه الكلمة خطأ، شائعة أو مهملة، أو غريبة، مهما كانت نوعية المتلقي المقابل لك.

٢- إن معاجم اللغة وقواميسها لم توضع عبثاً، ولكن كثيراً منا تعود على أن لا يعيرها أي اهتمام، حاول أن تعتمد لنفسك معجماً ما، وأن تحاول أن تضيف إلى رصيدك اللغوي ولو كلمات بسيطة بين فترة وأخرى.

٣- ركز مطالعاتك وقراءاتك في مجال تخصصك، حتى تظل مواكباً للمصطلحات الجديدة، ولكن إياك والرطانة، سواء بمعناها العربي القديم من قول مالا يمكن فهمه، أو استخدام مصطلحات مهنية محدودة الإنتشار، وكلما أوغلت في دهاليز المحلية كلما ضمنت لنفسك نصيباً وافراً من الفشل في التعبير عن نفسك، وفي التأثير على الآخرين.

٤- كـن إيجابياً مقبلاً على محدثك غير معرض عنه وابدأ بالتبشير أولاً، وتجنب التنفير، والأخبار السيئة.

٥- إن المفارقة اللغوية تقدح زناد العقل أيضاً سواء كانت على شكل مثل، أو حكاية مختصرة، أو طرفة لا يعافها الذوق السليم.

٦- احـرص عـلى معـرفة ورصد الكلمات التي تكررها (اللوازم)، أو الهمهمـة، أو الغمغمـة أو النحـنحة، كمـا أن التأني يساعدك على الـتخلص مـن الـتأتأة والفأفـأة وغير ذلك من فواصل لا معنى لها يحـرص الـبعض عـلى استخدامها: حسـناً، كمـا قلـت مـن قبل، أرأيت؟ أترى؟ آه، عذراً، عفواً، أليس كذلك؟.

رتب نفسك جيداً، وحاول التخلص من هذه الزوائد اللفظية التي لا داعي لها.

٧- تجـنب إحـباط الطـرف المقابل، ولا تشعر بأن ما يطرحه قديم ولا جديـد فـيه كـأن نقـول عندما يعرض عليك أحدهم فكرة أو شيئاً يعتقد أنه جديد، فتفاجئه بالقول لقد رأيت نفس هذا الشيء هنا أو هـناك، إن عـبارة "هـذا هـو نفس ذاك" لا تحبط المقابل وتحرمه من شعوره بالتميز فحسب، بل إنها تعبر عن أسلوب تفكير لا يقدر الأمـور حق قدرها، ويجنح إلى العموميات والقولبة، مما يجعله غير قادر على رؤية التفاصيل الدقيقة التي يحتاج الآخرون أن تريها لهم، وإذا لم تسـتطع قيادة الآخرين عبر دروب التفاصيل الدقيقة، فإنك لن تستطيع التأثير فيهم.

٨- تجنب الحدية في الطرح والنقاش، وتذكر أن مدى الحوار شاسع بعلو الهواء واسع باتساع السماء في كل شأن وأمر، إلا أن يتعلق الأمر بالغايات النهائية للحياة والمعتقدات الحادة التقسيم، وبخلاف ذلك، فإن كل شيء قابل للنقاش، ولا ينبغي تقسيم الأشياء بحد السكين فإما هذا أو ذاك، إن هذه إحدى سمات منطق الجدل اليوناني القديم، وهي تعطل قنوات الحوار السالكة ولا ترمي إلا إلى تسجيل النقاط، والناس ليسوا بحاجة إلى من يغلبهم ويسفه آراءهم بل بحاجة لمن يرشدهم ويقودهم، ويؤثر فيهم، فلا تجعل طرحك يقوم على هذا النوع من التسلط العقلي، الذي يحرمك، ـ والآخرين ـ من استطلاع الفرص والبدائل .

٩- كن مباشراً في طرحك وفي سؤالك وفي تلميحاتك، حقاً إنك لن تستطيع إصابة السقف إذا لم تكن قد دربت نفسك على التسديد نحو النجوم، ولكن المدى الاستراتيجي العالي ما ينبغي أن ينسيك الأهداف التكتكية المطلوب تحقيقها من رسالتك، إن أهمية النظر إلى الماء لا ينبغي أن ينسي الإنسان أن ينتبه إلى موضع قدمه كي لا يزل، وتتطلب المباشرة منك أن تتخلص من كل الدهن الزائد الذي يثقل على المحادثة، فهناك مثلاً عبارات النفاق المكشوف، كما يحصل عندما توقع رسالة إلى شخص لا تعرفه بصفة "المخلص فلان"، أو كما يحصل عندما تتصل بزبون محتمل لا تعرفه، لتؤكد له أنك يهمك التعامل مع شخص موضع ثقة مثله، إن بضاعة النفاق الزائد هذه لا تجد من يشتريها، وإن كان الإنسان يحب الإطراء، إلا

أن الإطـراء وعـبارات المجاملـة يجـب أن تتركـز على ما يفعله هذا الرجل وليس على ما هو عليه إن إطراءك على إبداع مؤلف معين لأنه هو يختلف عن طرح موضوع معين أبدع فيه هذا المؤلف فعلاً. ومـن الدهـن الزائد الذي يقل المحادثة أيضاً ما نسمعه من عبارات المماطلـة أو الغمـوض كـأن يقـول لـك شخص ما : "سأحاول أن أتحـرى عـن هـذا الأمـر، وسـأرد عليك قريباً"، إن هذه كلمات لا معنى لها على أرض الواقع، وقد تعني: "إنني غير مهتم بموضوعك، فـانس الأمـر"، ومـا ضر هذا الشخص لو قال لك: "إنني أحتاج إلى يوم لاستيضاح الأمر، وسأرد عليك غداً في مثل هذا الوقت".

وعندما تحرص على تسجيل نتائج تواصلك البياني مع من حولك ستجد أنك تحصل على أفضل نتائج عملك من أقل المحادثات وقتاً، وأنه كـلما طـال أمـد الحديـث، كلما ترهل وقلت الفائدة منه، إن أي موضوع مهـم لا يحـتاج إلا إلى دقـائق قلـيلة حتى تطرحه كاملاً، أما إذا دخلت في تفاصيل عـن سـوء حالة الطقس، فإنك تضيع وقتك ووقت محدثك، بلا طـائل، إن المباشـرة والحسـم يختلفان عـن الديكـتاتورية، في إدارة دفـة الحديـث، ولعـل "ديمقراطية العـين الحمراء" أو الحزم بلا عنف واللين بلا ضعف" تظل هي القاعدة الذهبية.

١٠- إنـنا ننسـى عادة قاعدة بسيطة تقول "إن لكل مقام مقال"، وبالتالي نجـد أنفسـنا نـردد في أحاديـث العمـل واجـتماعاته كلمات مثـل "أشعـر، أرغـب، لا أحس، إن هذا لا يروق لي على حين نردد في

البيت عبارات مثل أريد أعتقد، من المؤكد ونجد أنفسنا تدريجياً، وقد نقلنا كلماتنا العاطفية إلى مجال العمل ونقلنا مصطلحات العمل إلى البيت، كذلك تؤدي قلة المترادفات ، وضعف الحصيلة اللغوية إلى الإسهاب في طرح كلمات مهنية غير مفهومة لدى الطرف الآخر، الذي يكون في توق لمعرفة النتائج، مما يخلق أحياناً حالة من عدم التفاهم، إن لم نقل حالة من انعدام الثقة، وأبسط مثال على ذلك أن تسأل شخصاً عن الوقت، فيدخل معك في تفاصيل صناعة الساعات التقليدية والرقمية، كي تكتشف أنه لم يجبك على سؤالك. كذلك حال بائع أجهزة الكمبيوتر الذي يركز حديثه على صناعة الجهاز بكلمات مهنية غير مفهومة للزبون المحتمل وبشكل لا يحتمل، مع أن هدف الزبون هو معرفة ما سيفعله الجهاز له وكيف.

١١- أعط حديثك قيمة مضافة، أو فائض قيمة مضافة كما تقول لغة أصحاب الأعمال:

إن من الصعب أن تؤثر في الآخرين، إذا لم يكن لديك شيء يفيدهم وحتى لو افترضت أن حديثك يشكل قصيدة أو أغنية، فإنها يجب أن ترتبط بذكريات المتلقي وخبراته ومواقفه وعواطفه، فإن لم تضرب وتراً حساساً لدى المقابل فإنك لن تسمع لحديثك صدى، ومن المعروف أن ليس كل الناس يعرفون قواعد العزف الموسيقي، ولكن كل إنسان يتأثر بمعزوفة أو بأخرى بدرجة ما، مع أن الموسيقى ليست كلمات إلا أنا

أنها تترك تأثيرها من خلال محتواها الذي تتركه في النفس، ولا يعني ذلك أن المحتوى بديل عن الشكل، فالأمور تقوم كلها على التكامل لا على التناقض، إن البائع الذي يتحدث بأفصح لسان، لن يبيع شيئاً، إذا لم تكن لديه معلومات كافية عن المتلقي وعن السلعة أو الخدمة التي يعرضها، وعن تركيبها وتصنيفها وكيفية عملها ومدى منافستها لغيرها، وكل هذه معلومات، وحتى تنتقل من طور الكلام الإنشائي الجميل إلى طور الكلام الإنشائي المفيد فإنك محتاج إلى أن تمسك بناصية الفصاحة والمعلومات معاً، ومن هنا تأتي أهمية مواردك الثقافية وتنميتها باستمرار إن أي إنسان لم يعد قادراً في عالم اليوم على متابعة كل ما ينشر من مواد ثقافية، الأمر الذي يوجب عليه أن يكون متخصصاً من حيث نوعية مناهل المعرفة التي يرتادها، والحديث هنا يتعلق بالتعلم المستمر الذي يقوم على نوع من الانضباط الذاتي، وليس عن التعليم المستمر الذي يعتمد على مرجعية انضباط خارجية، بمعنى أنك لا بد أن تخصص وقتاً ما لتوسيع دائرة اطلاعك الثقافي، بالمعنى الوظائفي للثقافة من حيث أنها أسلوب حياة، وصقل للأداء هذه هي أبسط تعريفات الثقافة من موروثنا العربي حيث ثقف بمعنى وجد وقوم وصقل وحصل وهي كذلك في حياتنا المعاصرة حيث الثقافة وسيلة حياة، أي أن الثقافة لم تعد مقتصرة على الإبداع الأدبي، أو الفني، وإنما تشمل سائر المعارف التي تنفع الناس وتظهر في سلوكياتهم وتمكث في الأرض وأدمغتهم.

ولا يعني ما سبق الإنغلاق داخل حدود خانة تحصيل أكاديمي أو علمي معين، لأن عالم اليوم يقوم على تداخل التخصصات، ولنأخذ مثلاً من واقع الطب النفسي، فقد كان التخصص في علم النفس كافياً لمعالجة المشاكل النفسية، أما اليوم، فلا بد من الطبيب العام، والمختص، والأخصائي اللغوي، والإجتماعي، وأخصائي التغذية من أجل علاج مرض ما، وبالتالي فمن المتوقع أن يصبح التخصص مستقبلاً يتعلق بمرض معين لا بالطب النفسي، كله وهكذا، فإن تخصصك المهني أو الأكاديمي لا ينبغي أن يكون منغلقاً، ويمكنك الاختيار بناء على ما يناسب عملك ودورك، فلو فرضنا أنك تعمل في مجال السيارات، فإنك يمكن أن تتخصص (بالكهربائيات) لعدة أنواع من السيارات أو أن تتخصص (بنوع سيارات) واحد كهرباء وميكانيك وبشكل يشمل كل ما يتعلق بهذا النوع المحدد.

ولا شك أن المواد الثقافية التي تحتاجها في الحالة الأولى تختلف عنها في الحالة الثانية وهكذا... وفي الحالتين فإنك لابد أن تقدم النتائج للمتلقي سهلة وبسيطة دون أن تردد عليه لوائح معقدة بأسماء مراجعك ومرجعياتك، وخطوات البحث، إنه نوع من (spoon feeding) في الثقافة الإنجليزية، أو القول الميسور في الثقافة الإسلامية، الأمر الذي يتطلب منك أن تجعل مادتك مستساغة المذاق، وأن تعذر عليك ذلك، فأتبعها بجرعات من أي سائل حتى لا تكون مثل قرص الدواء الجاف الذي يلصق بالمريء، بدل أن ينزل إلى المعدة، إن الرقم يمكن تطويعه ضمن مقارنة، أو مفارقة، أو مقاربة، والحقيقة يمكن تبسيطها بالحكاية، والمثل يحول المجرد إلى ملموس وهكذا يمكنك إحداث المزيد من التأثير لدى المتلقي.

لـغـة الجسم

الفرص والإمكانات

على الرغم من أن العرب أهل فراسة، وأنهم طوروا الكثير من المعارف في هذا المجال، وعلى الرغم من أنه كان لنا ثقافتنا الخاصة بحركات وايماءات الجسم، إلا أن المحدثين من الكتاب العرب مقلون في هذا المجال، ولجد جل اعتمادنا فيه على مصادر ومراجع أجنبية لا تتناسب وثقافتنا العامة.

إن هناك خلطاً يقع بين التكوين البدني، وبين الأداء السلوكي لأعضاء البدن، مع أننا في لساننا العربي نفرق بين الخَلْق (بفتح الخاء وتسكين اللام) وبين الخُلُق (بضم الخاء واللام) فالأول أمر لا حيلة لنا فيه، والثاني مناط التكليف وحدود المسؤولية.

إن على كل من يريد أن ينجح في حياته أن يركز جهوده على ما هو مسؤول عنه، فما ذنبك إن كنت أبيض البشرة أو أسودها ؟ أو إن كان جبينك عريضاً أم ضيقاً ؟ أم إن كانت عيونك واسعة أم ضيقة ؟ أو كنت عريض المنكبين أو ضيقهما ؟ أو فارع الطول أو قصيراً ؟ إن استخدام الصفات الوراثية للتمييز بين البشر هو عمل عنصري، والأقوال التي تستند إلى التصنيفات الخلقية لا أساس لها من الصحة وحتى المهنة الواحدة فإنها من المستبعد أن تؤدي إلى إحداث صفات وراثية خاصة، كأن يكون من

تورثوا مهنة الحدادة ذوي مناكب عريضة مثلاً، وإنما الحالة التي يعيشها الإنسان هي التي قد تجعل شكله مرغوباً أو متناسقاً أو لا، ويمكن تبسيط الأمر على الشكل التالي :ـ هب أن لدى إنسان مبلغاً بسيطاً من المال، مقابل إنسان آخر يملك مبلغاً كبيراً، إن الحجم المطلق للمال غير مهم، بل إن طبيعة الاستثمار الذي يقوم به كل واحد منهما هو الذي يحدد الفشل أو النجاح، وبنفس الطريقة فما نفع اتساع الصدر الخَلقي (بفتح الخاء) إذا لم يكن الإنسان قادراً على استغلاله من أجل توفير هواء كاف للجسم؟ وما نفع الأذنين الكبيرتين لشخص أصم ؟؟.

ولنأخذ الأمر من زاوية أخرى، فإن علماء النفس صاروا أميل إلى الإقتناع بوجود مجتمع معاق، وليس بوجود طفل معاق، حتى في حالة وجود مرض جسماني.

إن لكل إنسان دوراً في هذه الحياة، وعندما خلق الله العادل الذي لأحد لعدله ولا لرحمته، فإنه زوده بالآلات اللازمة للقيام بدوره هذا. وحتى الحرمان من أية ميزة فإنه سبحانه يعوضه إما بميزة أخرى أو بالأجر الذي يمنحه إياه مقابل صبره.

ولما سبق، فإن علينا أن لانغتر بما لا فضل لنا فيه، فإن كان الله آتى أحدنا طولاً فارعاً فليشكر، وإن كان اقصر مما ينبغي فليصبر فإن أحكامنا على الناس ينبغي أن تعتمد على التعامل معهم وعلى مقاييس للتقييم أكثر أصالة وعمقاً من اتساع الجبين.

ولـو أننا استطلعنا أشكال الناجحين، والمبدعين، أو المؤثرين الذي نعـرفهم لوجدنـا بيـنهم اخـتلافات بيـنة واسـعة يسـتحيل معهـا القياس، والخروج بنتائج موحدة، فهل كان نابليون بونابرت طويلاً مثلاً حتى يكون زعـيماً ؟ ولـو أخذنـا أتسـاع الجبين فكيف نقارن مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانـيا في الثمانيـنات بمارلين مونرو النجمة السينمائية الأمريكية المعروفة.

ومقابل ما سبق، لنحاول أن نتمعن في الآية الكريمة التالية:-

قـال تعـالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

- إن الحديـث عـن الملـك، وهـو أضيق من دائرة التأثير، بمعنى أن كل ملـك يجـب أن يكـون مؤثراً، ولكن لاشترط أن يكون كل قادر على التأثير ملكاً، وبخاصة أن الملك هنا محكوم باختبار إلهي عن طريق نبي، وله غاية وظيفية هي القتال.

- إن نظرية (الحق) ومن صاحب الحق في كذا أو كيت من الأمور، هي من أسباب غضب الله على إبليس لأنه رأى أنه أحق من آدم بالمنزلة، كمـا أن اليهود يرون أن لهم (حقاً) تاريخياً في فلسطين مع أن الأرض

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٧).

لله يورثهـا عـباده الصالحين، وهنا أيضاً أثار هؤلاء أحقيتهم في الملك (مدعمـين) حجـتهم الواهـية بـأن لديهـم سعة من المال ليست لدى طـالوت، أنهما مفهومان لايزالان مستمرين إلى يومنا هذا، أن يتخيل الإنسان أنه الأحق، وأن يعتبر المال مقياساً للزعامة.

- ويـبين الله سبحانه أنه يصطفي من يشاء من عباده، هذا بالمطلق، فهو وحـده صـاحب الحق المطلق، ومن حيث التفاصيل، فإنه زاد طالوت بسـطة في العـلم والجسـم، ولم يقـل سـبحانه وتعـالى إنـه زاده عـلماً وجسماً، وإنما الزيادة عبر عنها بالبسط ـ أي القدرة على العرض وفي العـلم، فقـد نجـد شخصـاً عالمـاً لا يستطيع أن يوصـل مـا لديـه إلى الآخرين وأن يبسط لهم ـ بما في الكلمة من إيحاءات العرض والتبسيط وعـدم الإنغـلاق، أما طالوت فلم يكن علمه في داخله فقط، بل كان قـادراً على بسطه، وكذا في الجسم، إذ الواضح من النص الكريم أنه سبحانه وتعالى لم يشر إلى الضخامة وإنما إلى البسط، فالكف المبسوطة الصـريحة هي كف مبسوطة تعطي نفس الإيحاء والتعبير بصرف النظر عـن مساحتها، والأسارير المبسوطة (لحسن التلقي من المقابل ولحسن التواصـل معـه أيضاً) لا تعتمد على أي مقياس كمي محدد بالمسطرة، تماماً مثلما أن طلاقة الوجه لا علاقة لها باتساعه أو لونه.

وعندما يتعلق الأمر بالتفكير الإبداعي وحده، فإنك تحتاج إلى معرفة القليل عن لغة الجسم وحركاته سواء من حيث استعمالها أو من حيث تفسيرها، أما عند الحديث عن التفكير المؤثر وعن القدرة على التأثير في الآخرين، فلا بد من ملاحظة عدد من الأمور: ـ

- إن لغة الإيماءات والحركات مثلها مثل اللغة المنطوقة من الممكن أن تتعرض للزيف أو الكذب أو التكذيب، والحركة للكلمة يجب أن تفهم ضمن سياق منسق متكامل من حركة الجسم كله.
- في كل الحالات ينبغي تجنب المغالاة في الحركات أو المبالغة في إستخدام لغة الإشارة، لأنك من المفروض أن تتحدث إلى أناس يجيدون الإستماع، فلا تشوش عليهم بحركات مفتعلة، لأنك تحاول تركيز اهتمامهم لا تشتيته.
- هناك حركات نمطية مكررة تدل على وجود مشكلة نفسية مثل هز الجذع جيئةً وذهاباً، بشكل رتيب، أو هز الرجلين بشكل عصبي...الخ أو ضرب الأرض بالقدم بشكل قوي أو بسيط، أو ضرب المكتب أو الطاولة بقبضة اليد المغلقة أو بباطن الكف، وكلها حركات تدل على وجود خلل ما، مهما كانت نوعية ثقافة المتلقي.
- إن حركات الصد والرفض معروفة في معظم الثقافات، فالرضيع ينأى بوجهه عن صدر أمه عندما يشبع، والطفل الذي يكذب يضع يده على فمه أثناء الحديث والطفل الذي لا يريد أن يسمع يضع يديه على أذنيه، ومع تقدم العمر واكتساب خبرات الحياة وتجاربها فإن الإنسان يتعلم محاولة إخفاء مشاعره الحقيقية لاعتبارات الأدب أو

المجاملة الإجتماعية، ولكن رغبته الداخلية تدفعه إلى ممارسة عملية الصد أو الرفض، أو تبدأ يده بتلمس أذنه إن كان لا يريد أن يسمع، أو بفركها إن كان فيما يقولنه ما يستحق العقاب، ونجد أن الكبير الذي لا يريد تناول الدواء يشير بيده علامة الرفض، كما أن انحناء الرأس إلى الأمام قليلاً يعني الموافقة، وفي كل الأحوال، فإن المسلم لا يجعل همه اكتشاف الباطن أو تقويل الشخص ما لم يقل، أو محاولة أخذ أقواله على أسوأ نحو وهو بالتالي لا يشتت اهتمامه بالبحث عن هذه التفاصيل، أما إذا وردت إلى دماغه فإنه يكون مستعداً لالتقاطها وفهم مغزاها ضمن السياق وبشكل مطلق / فإن تكذيب الصادق أكثر سوءاً من تصديق الكاذب.

- إن المسلم لا يحتاج إلى البحث مطولاً في تكتيكات التعدي البدني والاختراق المادي كأن يتعمد الميل إلى محدثه للتناجي في اللقاءات والاجتماعات غير محبذ البتة أصلاً، وحدود الحيز المكاني للمسلم (في حالة عدم الإختلاط) أقل من مثيلاتها في أي مجتمع متقدم من مجتمعات المدن (٢٥ـ ٥٠)، لأن المسلمين مأمورون بالتفسح في المجالس، وبرص الصفوف.

أما عندما يكون الحديث بين جنسين (ذكر وأنثى) فإن المسلم يتجه بشكل تلقائي إلى عدم اقتحام الحيز النسائي لا بالنظر (لأنه مأمور بغض البصر)، ولا بالحركة الجسدية، وكذلك حال المسلمة، وهكذا فإن ثقافتنا ببساطتها وشموليتها تريحنا من وعناء التفكير في تفاصيل هذه المسائل، من أجل التفرغ إلى الرسالة الإبداعية تلقياً واستقبالاً.

الابداع والأبراج العاجية

هل الإنهماك في العمل يساعد على الإبداع؟ أم أن معظم لحظات الإبـداع تقـع في أوقـات الاسترخاء البدني؟ لنأخذ وجهة النظر الثانية مع دعـاة الإسـترخاء، الذيـن تقـوم خطـة عمـلهم للوصول إلى الإبداع على خطوات يمكن

تلخيصها كما يلي :-

- ❖ المواظبة على الإسترخاء كلما سنحت الفرصة لذلك.
- ❖ الإبتعاد الذهني عن المشاكل العملية.
- ❖ أخذ الإجازات وبخاصة عند تزاحم المشاكل.
- ❖ استخدام الخيال للوصل إلى أفكار سعيدة وحالة ذهنية صافية.
- ❖ غير أسلوب حياتك وجدد الأشياء من حولك بما يمكنك أن تفعل ما تريد.

ويدعـم المؤيـدون للإسـترخاء وجهـات نظـرهم بحـالات مـثل أرخمـيدس الـذي قفز من الحمام، وهو يصرخ "وجدتها"، وأينشتاين الذي تخيل السفر على حزمة ضوئية وهو مستلق على ظهره، ولكن من المهم أن نلاحظ:ـ

- أن هـذه مجـرد حـالات إبـداع حصلت خلال فترة استرخاء، ولكن هـناك الآف الأمـثلة الإبداعـية الـتي جـاءت عبر مخاض من العمل والتعلم المستمرين.

- لـو كـان الأمر صحيحاً لوجدنا أن المصابين بداء النوم (ذبابة التسي تسـي) هـم أكثر أهل الأرض إبداعاً، فما بالهم لا يأبهون بشيء من حولهم ؟.

- إن الإسـترخاء بعـيداً عن ضغوط ومشاكل العمل قد يجعل الإنسان أكثر جنوحاً إلى ممارسة أحلام اليقظة، والتخلي عن الواقعية، وعدم رؤية ما أمامه، لأنه مركز على ما هو في داخله.

- لا يمكـن أن يكـون معظـم الـناس مبدعين، ولا يمكن أن يكون كل شـخص قـادراً عـلى وضع نظرية نسبية كل يوم، وإنما يمكن أن نجد نمـاذج لا عـد لهـا في المقابل من الناس الناجحين المؤثرين، وهذا ما نحـاول أن نسعى إليه، ولنأخذ مثلاً تحدي مرض السرطان، فقد نجد لـه حلاً إبداعياً نهائياً يأتي على يد شخص واحد من عدة مليارات مـن البشـر، فهـل نظـل نـنتظر حتى يسترخي طبيب ويبتدع علاجاً سـحرياً؟ أم نـراكم خـبراتنا العلمـية والعملـية، ونظل نسير بعملية الإبداع بشكل جماعي حتى ينبثق النوع من الكم؟.

إنني لن أتناول الإبداع هنا كعملية تدبر أو استبصار أو تأمل أو أية عملية من العمليات التي توجب قدح زناد العقل بشكل متصل، ولكن من المستحيل أيضاً أن نقبل بأن الإبداع شيء موجود على قارعة الطريق، وما علينا أن نفعله هو عدم الإلتفات إلى المشاكل من حولنا والإسترخاء، حتى تومض في عقولنا لحظة وجدتها، إن هذا إن حصل فهو إبداع استهلاكي مترف، ومجرد حديث عن الإنجازات بعد حصولها، أي بعد أن تصبح رحلة المعاناة شيئاً من الماضي.

وحتى عندما يكون الإنسان مدعوماً بالوحي، فلا بد من العمل، ولذلك نلاحظ أن الله طلب من سيدتنا مريم ـ وهي تعاني ما تعاني بدنياً ونفسياً ـ أن تهز بجذع النخلة، أي إنها طلب منها القيام بعمل مع أن الله سبحانه مرسل لها بحل، وهي بحاجة لأن تسترخي وتنسى ما تعاني.

كذلك قصص سيدنا موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [1] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ ﴾[2] ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ [3].

(١) سورة الأعراف الآية (١١٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٦٠).

(٣) سورة طه الآية (٧٧).

كذلـك سـيدنا نـوح "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا" ونلاحـظ أن الحلـول جاهـزة بأمـر الله وبإذنـه، فـلماذا تم تكليف الأنبياء بعمـل؟ وأي عمـل؟ إن الجميع يعـلم أن (الصـناعة) هي استثمار طويل الأجـل وقـد كلف به سيدنا نوح في صناعة سفينة، مع أن مرسل الطوفان قادر على إرسال سفينة.

أما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فكل سيرته تدل على العمل المتواصـل المتراكـم، ولم يرى سوار كسرى وهو في بيته في مكة، وإنما وهو مهاجـر، ولم يـر ملـك كسرى يفتح، وهو مسترخ بل وهو يضرب بالفأس مشـاركاً المسـلمين في حفـر الخـندق ، في أروع عملـية إبـداع جمعي تمت والمسلمون لا يجدون سعة من الأمن أو الوقت لقضاء الحاجة.

فـإذا أردت أن تكـون مبدعاً أو مؤثراً فلا تخشى على عقلك كثرة الإسـتعمال بـل الإهمـال، إن المبدع لا وقت فراغ لديه وهو دائم التأمل والتـنقل في فكـره بـين عاجلـة وآجلـة، حـتى يصل إلى مرحلة تتبوأر فيها حـزمات الضـوء (المعلومـات والخـبرات والأفكار والرؤى) في بؤرة قرار مركزي واحد.

فهـلا أدركـنا خطـورة مـا نروج له عن الإسترخاء البدني كمقدمة للإسـترخاء العقلـي والإبـداع؟ إن وقت الترويح هو وقت ترويح "فإن القلوب إذا كلت عميت" وأما وقت الإبداع والتأثير والعمل، فهو للإبداع والتأثير والعمل.

أمـا طـول فترة الإنتباه فهي عامل أساسي من عوامل نجاح المراقبة وجمع المعلومات، والتلقي قبل ممارسة التأثير، ونلاحظ أن كثير من القصور في القـدرة عـلى التواصل، إن المسبب الرئيسي هو عدم القدرة على إطالة فـترة الإنتـباه كمـا (في أمراض العزلة الذاتوية) وبإطالة فترة الإنتباه فإن القـدرة عـلى التواصـل تتحسـن تدريجـياً، ولذلـك حذار من الإفراط في تصـديق النصـائح الـتي تدعـو المرشـح للإبـداع إلى الإبـتعاد عـن العـالم الواقعـي بحجـة تجنب ازدحام الحياة، لأن كل ما نشاهد هو من آيات الله المـنظورة والمقـروءة، وهي بحاجة إلى تمعن أو بحاجة إلى رؤيتها وهي تعمل وتـتفاعل، وكـل تصـور، وكل خاطرة، وكل فكرة تصبح جزءاً من عالمك الواقعـي، أيـنما كنـت، والخلـو إلى الذات، أو مع الذات لا يعني انقطاع الـتفكير بـل التأمل بما ينطوي عليه من استبصار واستشراف واستشراف، إنـه جهـد عقلـي مـتكامل لا يقل كدحاً عن الإختلاط بالناس، أن الخلوة بالـنفس، إن كانـت مـع فكرة أو صورة فهي تمرين عقلي، وليست عزلة، وإن كانـت مجـرد حملقـة في السقف فهي مضيعة للوقت وخطوة أولى نحو الإنقطـاع عـن التواصـل المنـتج، حيث لا تأثير لا من يؤثرون ولا إبداع ولا من يبدعون.

الروتين - التكرار - العادة

إن الأعمال الروتينية ـ أعمال العادة ـ الأعمال النمطية ـ التكرارية ـ المكرورة، وما إلى ذلك من مسميات تفيد القيام بنفس الحركة بنفس الأسلوب بنفس الأوقات، تهدف عن ما يستدعها الإنسان أو الجماعة لتسهيل التكيف مع البيئة والتوافق معها، سواء كانت هذه البيئة طبيعية (نفزع إلى معاطفنا عندما يحل الشتاء)، أو اجتماعية (نشتري علبة حلوى كلما سمعنا بمناسبة سعيدة عند أحدهم)، أو وظيفية (كما في إجراءات الدوائر والمؤسسات الوظيفية المختلفة)، إن بعض الأعمال الإبداعية، والممارسات المؤثرة أحياناً خروجاً على العادة أو الروتين، وتبدو أحياناً أخرى ناتجة عنها، فالعادة بحد ذاتها ليست سلبية ولا إيجابية كقيمة نفسية مطلقة، إلا عندما يكون النمط السلوكي مكروراً (نمطياً) نتيجة عدم القدرة على إتيان سواه من السلوكيات بمعنى أننا نجد بعض من يعانون اضطرابات نفسية، ينهمكون أحياناً في نشاط مكرور مثل هز الجذع إلى الأمام والخلف جيئة وذهاباً في حركة نمطية مكرورة تعتبر دليلاً على وجود اضطرابات عزلة نفسية أو مرض نفسي مثل (الذاتوية) حيث يميل المصابون بهذا الداء إلى الإنعزال وممارسة هذه النشاطات، بل إنهم قد لا يستخدمون إلا كلمات أو ضمائر محددة بحيث تصبح لهم قواعد لغوية نمطية خاصة بهم، ولا شك أن أولى مراحل العلاج تتمثل في الخروج من هذه النمطية التي تعتبر أسوأ أنواع الروتين والعادات، ولكن هناك عادات

لا نملك إلا أن نقول أنها حميدة وتساعد الفرد على مزيد من الإبداع، ومنها الإستيقاظ في وقت مبكر فلم أقرأ لكاتب في أمور الدين، ولا الدنيا إلا ويثمن هذه العادة عالياً، كذلك هناك روتين وظيفي مهني لا يمكن تجاوزه لأن رفض النمطية التي تسير بها المعاملات الحكومية مثلاً يمكن أن يجعل الإنسان يعيش بلا وثائق شخصية، إذا أراد الخروج على هذا النمط، ولذلك فإن المشكلة لا تتمثل في العادة أو الروتين على إطلاقهما، أو في الوضع الراهن على إطلاقه، وليس الأمر كما يظن البعض من أن المبدعين يهملون منظرهم الخارجي، لأنهم مشغولون بقضايا ذاتية أكبر، وإذا كان بعض الباحثين يورد أمثلة معدودة عن مبدعين كانوا لا يبالون بالمظهر الخارجي، فإن هناك ملايين الفوضويين الذين لم يبدعوا شيئاً ولم يؤثروا في أحد، ولم يحظوا بمتعة الوضوء خمس مرات في اليوم، أو الإستحمام مرة واحدة في اليوم، بحجة إنشغالهم بما هو أهم، لقد كان الفتية الذين آوو إلى الكهف في أشد حالات الإندهاش والخوف من المجهول والبحث عن حلول، ولكنهم رأوا أن من سيرسلونه إلى المدينة عليه أن (يتلطف) كي لا يشعر القوم بأنه مخلوق استثنائي أو خارج النموذج المألوف، كما أن تحريم الإنسان لأية نعمة مباحة له شرعاً قد يوقعه في شبهات هو بغنى عنها.

لا بل يروى عن خريم الأسدي عن أبي الدرداء رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم حتى لا تكونوا كأنكم شامة في الناس.

إن هـناك في المقـابل عـادات سيئة يؤدي جمود الإنسان عندها إلى تحجـر في مواقفـه، ومفاهيمه، وتعيق عملية تكيفه أو تواصله، وقد تكون العادة السيئة بصرية (كأن تنظر عبر النافذة وأنت تحدث شخصاً) أو تكون سماعية (كأن يصيبك اضطراب إذا سمعت أصواتاً تبدو للآخرين عادية) وقد تكون تفكيرية، مثل أن تتعود على إصدار قرار حول أي موقف فوراً، أو أن تـتعود في المقـابل عـلى أن لا تصـدر أي قـرار إلا في وقت متأخر، وهناك عادات تتعلق بإيراد الفاظاً أو مفردات (لوازم)، ومن حسن الحظ، أن الإنسـان يسـتطيع أن يغـير أيـة عـادة سـلوكية خـلال ثلاثين يوماً من الـتمرين والإنضـباط الذاتـي المتواصل، هذا إذا خلص إلى أن هذه العادة تعـيق عمله الإبداعي والتأثيري، من خلال الملاحظات التي يسجلها على نفسه أو التي يحصل عليها من الآخرين، ومن الأهمية بمكان الحصول على معلومـات مـن الآخـرين ولـيش مجرد انتظار سماع ملاحظاتهم، إذكر أن أحـد أصـحاب الأعمـال كـان يـروح ويجـيء مستقلاً وسائل المواصلات العامـة مـن سيارات أجرة وحافلات، ولما أخبرته أن البعض يعتقدون أنه بخـيل جـداً، وإلا فـلماذا لا يشتري سيارة خاصة ويوظف سائقاً، قال: إن ذلـك يمنعني من الحصول على ردود فعل صحيحة عن كل شيء، فسائقي لـن يقـول لي إلا ما يرضيني، وأنا لا أريد أن أرضى عن نفسي، وأريد أن أسمـع من أكبر عدد ممكن من الناس، فلا توجد معلومات عشوائية ـ أي أنـه يربط كل معلومة تأتيه بما قبلها بعد أن يفاعلها في ذهنه على وجودها كافة.

نخلص مما سبق، إلى أن الشخص المؤثر ليس شرطاً أن يسترخي في حوض استحمام نصف عمره، ولا أن ينعزل ليحملق في السقف وحيداً ولا أن يعتزل الناس أو يبدو شاذاً أو غير مألوف في سلوكه أو مظهره، بل يمكنه أن يكون بسيطاً " يأكل الطعام ويمشي في الأسواق " ويقوم بالأعمال المباحة والعادات المفيدة لنفسه ولغيره.

لقد كانت القاعدة القديمة في القيادة والتأثير تقول: " إن علي أن أسير أمام الناس، أو لست قائدهم " أما اليوم، فإن القاعدة تقول: " ينبغي أن أتبع الناس، أو لست قائدهم ".

إن قدرتك على التأثير تعتمد إلى حد كبير على قدرتك على اكتشاف البشر المحيطين بك، من حيث قدراتهم ومواقفهم وجعلهم أكثر إدراكاً لها عندما يكونون معك.

اخيراً :- فليس للابداع علاقة بالأبراج العاجية.

الإبداع والقوى الخفية

يلجأ البعض إلى أن يحكموا على أنفسهم وقدراتهم من دون محاكمة عقلية بأن يعتقدوا أنهم لا يمكن أن يكونوا مبدعين، ومؤثرين، ولا حتى ناجحين في حياتهم، ولهؤلاء أسباب مختلفة، تنبع في أحيان كثيرة مما يقرأون :ـ

فقد يقول أحدهم إن برجه هو برج الجوزاء، وأن جميع كتب الأبراج تقول انه ابن الجوزاء هو شخص متقلب، عاطفي، لا يستقر على قرار، وقد يكون مبدعاً، ولكنه نادراً ما يوضح الحرف الأخير من توقيع اسمه، أي أنه لا جلد لديه على متابعة مهمة ما بنجاح، وهكذا يمضي الإنسان إلى مالا نهاية في تحليل كل برج من الأبراج، وتصبح هذه المفاهيم محدودات سلوكية تحد من نجاحه وإبداعه، وينتهي بالقول : إنني هكذا، وسأبقى هكذا، لأن برجي هكذا وذلك بعد أن يقلب صفحات كتب الأبراج باحثاً عن مشاهير من برجه، فإن لم يجد، فإن ذلك نهاية المطاف، بل أن بعض الناس يقبلون على قراءة الأبراج في الصحف والمجلات، ويصلون حد الإتصال (بعلماء) الأبراج، وصارت هذه الصفحة مصدر دخل لبعض من يتقنون الحديث في هذه المسائل.

إن الحديـث هـنا لا يتـناول عـلم الأبـراج السماوية، ولكنه يتعلق نفسـياً بإصـدار أحكـام مسـبقة عـلى سلوكيات الإنسان وأدائه، قد تصل أحـياناً حـد التنجيم و إطلاق النصائح هو ما يفعل الإنسان وما لا يفعل، وحول ما قد يحصل معه في هذا اليوم أو الأسبوع أو السنة، ونرى البعض يقولون "كذب المنجمون ولو صدقوا" أثناء ممارستهم التنجيم.

إن سـورة الجن في القرآن الكريم تبين بوضوح قاطع أن لا مقاعد للسمع، وأن السماء منذ نزول القرآن الكريم ملأت حرساً شديداً وشهباً، وبالـتالي، لم يعـد مـن مكانـه مميزة للكهان والعرافين الذين كانوا يلوذون بالجن لمعرفة أخبار السماء، وفي سورة آل عمران يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾[1] ويأمر نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام في سـورة الأنعام بأن يقول لنا: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾[2]. وفي سورة الأعراف: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾[3]. إن الله وحـده هـو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، وبالتالي فإن كل تحديـد لأمر مستقبلي من حيث الزمان أو المكان هو تنجيم ترخيص مهما كان طلاؤه.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٩).

(٢) سورة الأنعام الآية (٥٠).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٨).

الرؤى والأحلام

ليس المقصود هنا البحث في تفسير الأحلام بشكل تقليدي، ولا الدخول في متاهات العقل الواعي والعقل الباطن ودهاليز مدارس التحليل النفسي، ولكن القول إن الرؤيا في المنام، قد تكون لحظة استبصار تأملي وصلت ذروتها فتجسدت للرائي، وهذا أمر موضع اتفاق سواء في علم النفس (يونغ وغيره) أو في قناعاتنا الدينية حيث يحدثنا القرآن الكريم عن رؤيا إبراهيم ويوسف عليهما السلام، وكذلك عن (معجزة) سيدنا يوسف في مجال تعبير الرؤى وتفسيرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة"[1]، وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"[2] وفي رواية: "أصدقكم رؤيا، أصدقكم حديثاً، وسواء اعتبرنا الرؤيا إيماءاً أو إلهاماً، فإنها أقرب ما تكون إلى بوأرة مجموعة من الصور والرؤى وتكثيفها، وإلا لما كانت الرؤيا الدينية بحاجة إلى درجة عالية من الإيمان، ولما كانت الرؤية العلمية لا تحدث إلا مع عالم، وليس مع أي نائم، وفي كل الأحوال فإن الرؤيا هي بشرى، وليست رجماً بالغيب

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

ولا تنجيماً، وهي من نعم الله عز وجل يجتبي بها من يشاء من عباده، كي يجلوا بها مشكلة للإنسانية، وحتى يطمئن الواحد منهم إلى أن وعد الله حق وأن الأعمال بخواتيمها إذ كان يعيش فترة من المخاض العسير في أي أمر.

وفي كل الحوال، فإن معظم المدارس النفسية لا تزال تصر على الرجوع إلى "العقل الباطن" بكل عمومية، وكأن العقل الباطن صار مكب كل الظواهر السلوكية التي لا يجد لها الباحث تفسيراً، ولعل من الأجدر للباحثين أن يتخلوا عن هذا التقويم، وأن يفترضوا وجود مستويات معقدة لعمل الدماغ استطاع العلماء فهم بعضها وأين تحدث، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الجزء الأكبر من آلية عمل هذه الآلة المعقدة، من حيث قدح زناد الصور (الذي يمكن أن يتم بشكل بطيء) أو بشكل سريع جداً، ومن حيث القدرة على النمذجة، ومصادقة النماذج والخروج على النماذج، ومن حيث فترات الانتباه وتركيزها ولحظات الإلهام.

وعلماء التفكير عاكفون منذ سنوات السبعينيات على دراسة هذه النماذج بشكل يجمع بين علم النفس وعلم الأعصاب والدماغ. فالمسألة ليست مسألة تصنيف سريع وحاد بين عقل واع / ظاهر يحلل لنا ما يستطيع تحليله بشكل نفهمه، وعقل غير واع / باطن يحلل لذاته ما لا يستطيع إفهامه لنا.

إن مدرسة التحليل النفسي الفرويدية آيلة إلى السقوط (في مجال عمل العقل البشري على الأقل)، وهذا ما تؤكده نتائج الباحثين الأكثر علمية مثل إدوارد دي بونو (أخصائي دماغ وأعصاب، وأستاذ علم نفس وحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت)، وهو الذي تناول عمل العقل كآلة وكآلية معاً، وليس كما يفعل أتباع التحليل النفسي الذين تعاملوا مع العقل كآلية ضمن رؤية فرضية ضيقة جداً فكادوا يرجعون علم النفس إلى حضن الفلسفة التقليدية بدل أن يدفعون في إتجاه العلوم التجريبية.

ولكن مشكلة الباحثين الأكثر حداثة مع المسلمين تتمثل في أن هؤلاء الباحثين يأخذون العقل أو الدماغ كآلة وكآلية حقاً، ولكن بشكل مستقل عن الكون، والله سبحانه وتعالى ربط آياته في هذا الكون وفي أنفسنا معاً، ومن ذلك أن تأثير طبقة الآيونوسفير الجوية على الدماغ البشري لم يدرس بعد، وإلا فكيف تجعل هذه الطبقة المتأينة التي تمتد إلى مسافة ما بين ٥٠ ـ ٤٠٠ ميل فوق سطح الأرض استقبال الموجات الدماغية ممكناً ؟ إن هذه الطبقة التي عرفنا مؤخراً أنها تنقل لنا المعلومات بغزارة، هي ذات الطبقة الرقيقة التي تحمي الأرض من ملايين الشهب التي تصطدم بها يومياً "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً" أي أنها شكلت جدار صد للمعلومات، ضمن نفس آلية الإرسال، فننظر في مليارات المعلومات التي تجوب طبقة الهواء على كل المستويات وكيف تتبوأر في الدماغ ولنقارن ذلك كما أمكننا بالبرق والرعد وتكون الماء فسبحان الله العلي العظيم.

وكما نلاحظ فإن الإسلام ليس مجرد عموميات، بل إنه يشمل كل القوانين التفصيلية، ولكن المطلوب منا مضاعفة الجهد والعمل على الفرضيات معتمدين النقل والعقل والتجريب، فالنقل ليس مصدر إعاقة للتفكير كما يحاول البعض أن يفهمنا بل إنه الذي سيهدينا سبلنا نحو تطوير علمي سنجد عند حصوله، أن كل تطورات القرن العشرين ليست شيئاً قياساً إلى الفرص التي يحضنا القرآن الكريم على إستطلاعها، وليس الهدف هنا وضع فرضية أمام فرضية ولكن إذا ربطنا الإنسان بالكون على أساس أنه مستخلف في هذه الأرض فإننا نصبح أقدر على تصور مدى الإرتباط بين الظواهر الكونية والعقلية، وبالتالي، يمكن أن نتفهم مدى قدرة العقل على (التقاط) صورة من فضاء بعيد، فهذا خلق الله، ولاشك أنه أقدر من التلفاز على التقاط البث، وفي هذا الفضاء هناك مصادر هداية، وهناك مصادر ضلال، والاختيار هو مسؤولية الإنسان، وبالتالي لا نعجب من التعوذ من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس (الصدر مصدر الأوكسجين ولا عمل للدماغ إلا به)، كما لا نعود نعجب من تزيين الأفعال لنا على شكل تفاعلات تفي داخلنا حيث يأتي مس طائف من الشيطان ثم التذكر ثم الإستبصار (كماسبق القول)، وحيث أن دماغ الإنسان يستمر في العمل، وهو نائم وهو مستيقظ، فما الذي يمنع وصول شحنة هداية معينة بشكل رباني يلتقطها العقل على شكل رؤيا ؟ قد يقال إن هذه افتراضات، ولكن ألا تنسجم مع الوضع الكوني ومع عمل العقل أكثر من افتراضات الأنا والأنا الأعلى ؟ هل أثبت العلم التجريبي وجود الهو والأنا والأنا الأعلى ؟ إننا نستطيع أن نفهم تسخير الكون لنا أكثر، إذا فهمنا دور الأجواء المتأينة، والأوزون، ومواقع النجوم...الخ.

العلم والحكمة

من المفارقات أن بعض من يبحثون في مجال الإبداع والتفكير والتأثير وقوة الشخصية يتجاهلون ـ سهواً أو عمداً ـ الحاجة إلى العلم والحكمة بكل تفصيلات المصطلحين وظلال معانيهما، مع أن العلم هو سبيل التفوق فأول ما ميز الله به سيدنا آدم عليه السلام هو العلم "وعلم آدم الأسماء كلها"، وكذلك الأنبياء عليهم السلام أجمعين، وفي مجلس سيدنا سليمان تفوق الذي عنده علم الكتاب على عفاريت الجن عندما طلب سيدنا سليمان من جنده إحضار عرش بلقيس، فقد عرض الجني أن يأتي به قبل أن يقوم سيدنا سليمان من مقامه، أما الذي عنده علم الكتاب فقال: ((أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، ويرفع الله الذين أوتوا العلم درجات))، وإذا قلنا إن العقل سلاح ، فإن العلم هو ذخيرته، وإلا فإن كل طرح يعد (جدلاً) عقيماً، ومجالات العلم المحتاجة إلى بحث واستطلاع وتفكير لا تعد ولا تحصى، ولعل أهمها علم منظومة التواصل في الدماغ البشري، وكذلك علوم التواصل مع الكائنات الأخرى، وإدراك مغزى تعليم سيدنا سليمان (منطق) الطير ـ أي النطق بلسانه ـ ومعنى تواصله مع الكائنات الحية، وكذلك التواصل مع الأشياء، فالجدار في سورة الكهف كان (يريد) أن ينقض فأقامه، أي أن (الإرادة) قد تكون موجودة بتعابير ما في الأشياء وعلينا أن ندرسها، كذلك علينا البحث عن تطبيقات علمية وعملية لقضية كون كل كائن ـ أمم مثلنا ـ وكذلك هناك

علاقتنا بالشمس والقمر، فالله سبحانه يقول إنه سخر لنا الشمس والقمر دائبين، فهل تسخين (سطل ماء) يفي بغاية التسخير التي أوردها الله سبحانه وتعالى على إطلاقها.

نحن أمام ساحة العلم على اتساعها؟ وهي مجال خصب للإبداع، فلماذا يتم تجاوزها؟ ولماذا يتم قتل الخيال العلمي؟ وعدم القفز إلى نتائج بعيدة / جنباً إلى جنب مع أسلوب السير خطوة ـ خطوة، والرسم نقطة نقطة؟ لماذا لا نعلم أنفسنا وضع نقطتين أولا ثم الوصل بينهما بدل تركيز التفكير على الإنطلاق من النقطة الراهنة؟.

وساحة العلم الواسعة، من السهل تحقيق الذات فيها، فالمعلومات (المواد الخام) متوفرة، وتزداد توافراً، فماذا يتم إغلاق أبوابها، وفتح أبواب غير ممكنة ولا متاحة للأغلبية مثل (الأبراج والسحر والتنجيم...الخ)، لماذا نهرب من آفاق الإبداع الممكنة والمضمونة المتاحة للجميع إلى دهاليز غير ممكنة ولا متاحة ولا مضمونة، ألا تشم من ذلك رائحة مؤامرة على العقل؟.

إن تخزين المواد العلمية من قبلنا جميعاً، ومعاملتها في العقل، ووضع تصورات لتخطيها هي أولى خطوات الإبداع الحقيقي الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

لغة الحركات والإيماءات

أولاً :- ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (1).

تبسط هذه الآيات الكريمة لغة الجسم والحركات(الميكانيكية) تبسيطاً شمولياً، لا يؤدي إلى إهمال لغة الجسم وحركاته وإيماءاته، ولكنه لا يؤدي أيضاً إلى تعقيد هذه اللغة، إلى حد جعلها بديلاً عن كل ما سواها.

لنأخذ مثلاً وضع المقابلة المؤثرة :-

أنت تطل على الشخص / الأشخاص الذين سوف تقابلهم وهذه الإطلالة فيها تركيز على الوجه أولاً، فلا تصعر خدك، ولا تظهر التعالي، ولا الإعراض عمن أنت مقبل لهم، لأن نظراتهم من الصعب في هذا الوضع أن تطال عينيك مباشرة، ومن الصعب أن يشتتوها على قامتك، ولذلك جاء الخد كتعبير عن إطلالة الإنطباع الأول، يقولون في الغرب إن الإنطباع الأول يدوم طويلاً، ونحن نقول أن انطباع الخد الأول يدوم طويلاً، فالعملية عندنا مفصلة أكثر.

---

(1) سورة لقمان الآية (18-19).

بعد ذلك كي تم تشتيت النظرات، وتنتهي فترة تركيز الإنتباه الأولى على الخد بعد تكوين الانطباع الأولي، وهنا تصبح المشية بوضعها العام ـ لا طول الجسم ولا قصره ولا درجة انحناء الظهر ولا سعة الخطوة ـ وإنما المطلوب فقط تجنب المرح والخفة، التي قد تولد انطباعاً عن الطيش، أو الإعجاب بالذات، وهكذا، فإن مشيتك إلى داخل المكتب أو القاعة ينبغي أن تكون على ما يحبه الله، إنك تمشي بقصد واعتدال، لأن الله أمرك بذلك، وليس لأن الناس يراقبونك، وعندما تتخلص من ضغط الشعور بمراقبة الناس، فإنك تصبح أكثر تلقائية وعفوية وبساطة وقصداً بما يبلغك مقصدك.

وحيث أن الجمل الأولى للقاء قد تكون بلا معنى، فإن لنبرة الصوت التأثير الأولى والانطباع الأول الحاسم، فاجعل صوتك معتدلاً، ليس لإحساسك بمراقبة من حولك لك، ولكن لأن إنسانية صوتك التي ميزها سبحانه وتعالى عن صوت الحمار، هي التي تحملك مسؤولية صوتك وأمانته بأن تحافظ عليه صوتاً إنسانياً.

إن مراقبتك لله في نفسك تعفيك من مراقبة البيئة البشرية المحيطة، وبذلك تتخفف من ضغط البيئة، وبخاصة عندما تكون في مكان تدخله لأول مرة، أو في لقاء مع أناس تلتقي بهم للمرة الأولى.

إن بداية اللقاء على هذا الشكل هي بداية بسيطة ومقنعة وتؤدي الغاية، من دون الحاجة إلى التعقيد، ومحاولة تعلم حركات معقدة عند بدء اللقاء، لأن التكلف سوف يظهر، والإسلام لا يريدك أن تكون متكلفاً، بل أن تراعي أمانة جسمك وصوتك، لأن المحتوى الذي ستطرحه هو المقياس الأساسي للحكم لك أو عليك.

ثانياً:- إن كـل حركات الدنيا لن تفيدك في التأثير على الشخص الآخـر، إن لم تفـلح في الضـغط على زر التأثير الخاص به، ولعل في واقع الحـياة المعـاش مـا يـدل عـلى ذلـك، إذ نلاحـظ أن الناس يقلدون أحياناً حركات طائشة أو لا معنى لها يقوم بها أناس يملكون تأثيراً مالياً أو وظيفياً أو سياسـياً علـيهم، خذ مثلاً عادة حك الصدغ، إنها عادة سيئة إن لم تكن ناجمة عن حساسية معينة، ولكن لو أن شخصاً سياسياً مشهوراً استعملها، فإنك ستجد كثيراً من الناس يحذون حذوه، وخذ (عادة) أكثر سوءاً وهي نفـث الدخـان إلى أعـلى بشـكل يشـي بالإسـتعلاء، إن كـثيراً من الناس يقلدون هذه الحركة المقيتة، لأن مدراءهم أو أصحاب عملهم يقومون بها، وكذلـك عـادة النظر من فوق نظارات القراءة، التي يقلدها بعض الطلاب حتى لو لم يكونوا يضعون نظارات على عيونهم، إن الطالب يتخيل وجود نظـارات على عينيه، وينظر إلى الشخص المقابل من فوقهما، مقلداً معلمه أو معلمـته، طـبعاً لا نشـير هـنا إلى حـركات المشاهير من الفنانين وأبطال الصور المتحركة التي يقلدها الأطفال واليافعون وإن كانت غير ذات معنى أو قيمة.

ويفيد ما سبق في الوصول إلى نتيجة مفادها أنك من يعطي الحركة قيمـتها فـإن كنـت مؤثـراً على وجه الإجمال فإن حركتك ستكون مؤثرة، وليست قابلة لتقبلها بقبول حسن فحسب بل لتقليدها أيضاً. لذلك تمسك بـالآداب العامة وبالإعتدال في الصوت والمظهر، واترك باقي الأمور على السـجية، واتـرك لشخصـيتك أن تعـبر عن نفسها، وليس عن شخصيات آخرين ونماذج أخرى، قد تكون منقولة أو مستنسخة من ثقافات أخرى.

ثالثاً- إن معظم الثقافات التي تركز على لغة الإيماءات هي ثقافات يعتمد التعامل فيها على المصداقية، وليس على الصدق، ولذلك يشيع أن تسمع شخصاً يتحدث بشكل ما وتشي حركاته بغير ما يقول. أي أن الباطن يختلف عن الظاهر، ولذلك يصبح بحاجة ماسة إلى تعلم لغة الجسم وحركاته حتى لا يفتضح أمره، أما في الثقافة الإسلامية، فإن من المهم أن أكون صادقاً، لأن الصدق مع الذات يولد المصداقية مع التجربة والخبرة وبشكل تلقائي، ولا شيء يقنع الآخرين بصدقك مثل كونك صادقاً فعلاً.

كذلك الحال يمكننا ملاحظة سلوك الجسم لدى معظم الصينيين واليابانيين فالجلسة متواضعة، والإقبال على الآخر سمة مميزة، وانحناء الظهر إلى جهة المتحدث قليلاً يوحي بالإهتمام والاحترام وكذلك الإصغاء. أما الأرجل فتشكل السيقان زاوية قائمة تقريباً مع الفخذ، والراحة اليسرى في الراحة اليمنى بشكل يتم معه تجنب الإشارة بالقبضة أو التلويح بها. وكلها أمور معروفة في الشرق كمرادفات لحسن المقابلة، ولكن الثقافة الغربية وبخاصة الأمريكية هي التي أدخلت إلينا حركات الإستعراض والمغالاة، وحيث أن المغلوب يقلد الغالب فلا مناص من التأثر بهذه الحركات التي قد يبدو بعضها مستهجناً في ثقافتنا، ومن حسن حظ الإنسان أن الحركات السلبية معروفة، ويمكن تحديدها ورصدها والتخلص منها وهي حركات سلبية في معظم الثقافات الغربية والشرقية، إن الفطرة الأصيلة للإنسان تعينه في ذلك إلى حد كبير.

رابعاً: إن حركات الجسم ولغة أعضائه قابلة للتزييف والكذب أيضاً، على مستويين:

أولاهما: من حيث تناقضها مع الرسالة المنطوقة، كالطفلة الصغيرة التي تضع باطن كفها أو كفيها على فمها وهي تخبرك بشيء ما.

ثانيهما: من حيث تناقضها مع الواقع، فالشخص الذي يبسط كفيه للدلالة على صدقه وعلى أنه ليس لديه ما يخفيه، قد يستخدم هذه الحركة بمهارة من أجل تضليل المتلقي.

ويمكن أن يلتبس عليك الأمر فتخشى أن ترسل رسالة توحي بأنك تكذب، مع أنك تعرف في قرارة نفسك أنك صادق، وكما هو معلوم، فليس المهم أحياناً أن تثق بالآخرين، قدر أن تجعلهم يثقون بك، فكيف لك أن تتأكد أن كلماتك وحركاتك يؤثران في المتلقي وتقنعانه بأنك صادق؟.

كما سبق القول، فإن أسهل الطرق لذلك على الإطلاق أن تكون صادقاً، وحتى يتحقق لك ذلك، فلا بد من تجنب الكذب، وأن تتحدث بلسان القلب حتى يتجاوز حديثك الأذن إلى القلب.

لقد أفاض علماء النفس في تحليل الكذب، ودوافعه، يمكن اعتبار الكذب آلية دفاع في بعض الأحيان، كما يحصل عندما يكذب أحدهم خوفاً من العقاب ويمكن أن يأتي الكذب طمعاً بتحصيل منفعة قال تعالى:

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[1]. ويمكن أن يأتي الكذب استعراضاً وتفاخراً، حين يحب الإنسان أن يمدح بما لم يفعل، ويمكن أن يكون الكذب (طبعاً) : ' إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله '. والكذب أهم خصال النفاق، ويمكن أن يتهاون الإنسان في قضية الكذب ولا يقدر عواقبها حق قدرها، وتنهدم الحدود عنده بين ما يجوز من وجوه الحديث وما لا يجوز، فيغدو هناك كذب أبيض وكذب أسود. وهناك كذب ينجم عن مرض نفسي معين ومن وجوهه أن يقول الإنسان بأنه رأى أو سمع أو فعل أموراً لم تحصل فعلاً.

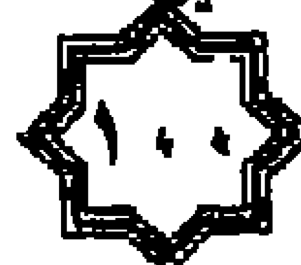
إن الكذب هو نقيض الإيمان القائم على الصدق والتصديق، وكفى بهذه الحقيقة واعظاً، ولكن من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن الصدق، والكذب يمكن أن ينتجا عن التعلم الذاتي والانضباط الذاتي، وفي الحديث النبوي الشريف ((إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وان الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا))[2].

وهذا يعني أنه يمكن التخلص من هذه العادة مهما كان الهدف منها، لأن الرسالة الإتصالية المشوبة بالكذب هي رسالة لن تصل، ولن تؤثر في المتلقي وحيث أن الكذب يجبرك على التصنع لأنك محتاج إلى التفكير فيما تقول ـ كي لاتنساه بعد قليل ـ فإنه يمنعك من التدفق الحيوي

---

(١) سورة الواقعة الآية (٨٢).

(٢) متفق عليه (أورده النووي في رياض الصالحين ١٥٤٢).



الذي يجعلك قادراً على اختراق خطوط الآخر وإقناعه بما لديك، عدا عن المظاهـر الفسـيولوجية السيئة التي تصاحب الكذب، من جفاف الحلق إلى اضـطراب التـنفس وغـير ذلـك، وإذا كان الشجاع يموت مرة، فإن الجبان يمـوت كل لحظة، ولماذا هذا القول ؟ لأن الكذب يرتبط بالجبن، وبالخوف مـن كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهو لا يقل عن الإستعلاء خـروجاً عـن الرسـالة والغايـة، فـإن الكـذب مـثله، إن المستعلي يستهتر بالـناس، والكـذاب يخاف الناس ولا يخاف الله، فهل يوجد ما يستحق في هذه الحياة أن يدفع الإنسان هذا الثمن الباهظ في دنياه وأخراه؟.

البؤرة والتركيز

الاستماع:

يعتبر الإستماع نشاطاً سلبياً من أنشطة التواصل لدى بعض الباحثين، ولكن ربما كان هذا التقييم ناجماً عن خطأً في التمييز بين السمع والاستماع، فالسمع كعملية ميكانيكة يمكن أن يكون نشاطاً سلبياً، حين تسمع مالا يفيد من الأصوات أو تستمع إلى مجموعة أكاذيب، أو إلى أحاديث لا تضيف شيئاً إلى رصيدك العقلي، ولا تضفي جديداً على شخصيتك، وعندها يكون الاستماع أحد مضيعات الوقت لا أكثر.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى لنا أذنين، ليس لمساعدتنا على وضع النظارات بشكل مريح وغير مزعج فحسب، ولكن كي نختار ما نسمعه خلالهما أيضاً كمصدر مهم لبناء العقل والشخصية، ولكن يحصل أحياناً أنك تسمع أشياء لا ترغب في سماعها وهذا طبيعي جداً، ولا يبدأ من أصوات ضجيج المركبات، ولا ينتهي بأقوال زميلك الثرثار في العمل، كما يحصل أحياناً أخرى أنك تريد الاستماع إلى أشياء معينة، ولكن عوامل خارجية تشوش عملية الاستماع، ولا يبدأ ذلك بخلل في جهاز الهاتف أو المذياع، ولا ينتهي بانخفاض صوت محدثك ولا ينتهي برتابة إيقاع صوت الخطيب التي تجعلك تغط في النوم، وفي كل الأحوال، فإن عليك أن تتذكر أن أذنيك لك وحدك، ولك مطلق الحرية في سماع ما تريد ضمن حدود

مسؤوليتك عن هذا الجهاز السمعي العجيب، الذي يقوم بأدوار الفلترة التلقائية للأصوات، إلى أن يتم نقلها إلى الدماغ، وفتح ملفات لها بحيث تصبح قادراً على تمييز هذا الصوت من ذاك، ومن نعم الله سبحانه أن فتح الملفات بمعدل (٥٠٠) كلمة / دقيقة، على حين أن أي متحدث عادي لا يستطيع أن يتحدث بمعدل يزيد عن (١٢٥) كلمة/ دقيقة، بمعنى أنك إذا سمعت محاضرة مدتها (٥٠) دقيقة، فإنك يمكن أن تسمع حوالي (٦٢٥٠) كلمة، ولكن يمكنك التفكير خلال هذه المدة بحوالي (٢٥٠٠٠) كلمة، وفي فترات الإنقطاع بين الكلمات التي يتم استقبالها، يفقد الإنسان قدرته على التركيز فيما يتلى عليه فيسرح بفكره هنا وهناك، أو قد ينفذ صبره ويبقى متهيئاً للجدل ولتسجيل النقاط على المتحدث، حيث يستغل عدم انشغال عقله بتلقي الكلمات من أجل التحفز والتحضير للردود، وحيث أنه لا يستطيع التحكم في الوقت بدقة فإن التشتت يعتريه أيضاً، ولا يعود قادراً على مواكبة المتحدث.

لا حل للحالتين، إلا بأن تستمع حسب استراتيجيات القراءة؟ فعندما تريد أن تحسن قدرتك الميكانيكية على القراءة، فإنك تفترض وجود خط وهمي عمودي يشطر الصفحة إلى نصفين وتبدأ القراءة من عنده، وليس من اليمين (كما في حالة اللغة العربية)، وبذلك تلتقط الكلمة المحورية الرئيسية في السطر ثم تنتقل إلى السطر التالي، وعند الإستماع إلى أية مادة سمعية، فإن عليك أن تنتبه مثلاً إلى أدوات النداء، وكذلك أن تحسن استخدامها أثناء حديثك، لقد كان المسلمون الأولون يعتمدون هذا

الأسلوب في الفهم، فعندما يسمعون نداء "يا أيها الذين آمنوا...." فإن الواحد منهم يتوقع فوراً ورود تعليمات بالقيام بعمل أو بالامتناع عن القيام بعمل.

وبمرور الوقت، فإنك تتعود على سرعة التقاط موجة البث التي تريدها، والتي تفيدك. ولا مانع من إظهار علامات الضيق او الملل، إذا شعرت أن الحديث يستنزف وقتك وأعصابك، ولو بالنظر إلى الساعة بين فترة وأخرى، فقد ينفع ذلك في تذكير محدثك بأن لديك أموراً أخرى تنشغل بها، ولا مانع من المقاطعة الدبلوماسية لتغير مجرى الحديث، إن المبادرة إلى وقف مالا تريد سماعه، تفيدك في تحسين عملية الاستماع عندك، لأنك إذا تهاونت في الإستماع إلى مالا تريد وما لا ينفعك، فسوف تتعود على التهاون الدائم كلما كنت أمام مادة سمعية، ولا تعود تميز بين الغث والسمين، ويصبح دأبك أن تسمع لا أن تستمع، لذلك أوقف هذه الظاهرة / أو العادة السلبية عند حدها، بأن لا تدع أحداً يفرض عليك ما تريد سماعه.

ويرتبط بالإستماع حسب استراتيجية القراءة أن تختار ما تسمع ـ تماما كما تختار ما تقرأ، حيث هناك كم كبير من الرسائل الإتصالية السمعية المفيدة لك كي تغدو مؤثراً، فاحرص على إبقائها قريباً منك، واستمع إليها وأنت في مكان عملك، أو وأنت تقود سيارتك، أو وأنت مسافر من خلال أشرطة التسجيل، واحرص دائماً على توفير كمية كافية من الأوكسجين لجسمك وفيه عندما تكون في حالة استماع، وستجد أنك أصبحت قادراً على تلخيص الرسالة السمعية، وعلى وضع نفسك مكان

المتحدث، بحيث تغدوا قادراً على تلخيص أقواله، وعلى استيعاب وجهة نظره، وعلى التفكير ببدائل فكرية أخرى، وأبعاد جديدة للرسالة التي يطلقها، دون أن تحمل أقواله ما لا تحتمل، وذلك بالحرص على عدم خلط مداخلاتك (العقلية) بما يلقى إليك من قول، وقد يفيدك أخذ الملاحظات وتدوينها في ذلك إلى حد كبير، وإذا لم يكن الجدل من أجل الجدل هو غايتك، فإنك ستجني الكثير، وستدرك فائدة الأذنين، وتوقع دائماً أن تجد شخصاً غير مستعد للإستماع، ولسان حاله يقول: "ليس ما قلته فحسب، بل ما ستقوله هو أيضاً خطأ" فاعرف كيف تنسحب بكياسة، ذلك أن لأذنيك وجهازك السمعي أمراً افتراضياً لتشغيله، فلا تهدره فيما لا ينفع.

وإذا كان عليك أن تصغي، وإن تبين للآخرين بأنك مهتم بما يقولون، من خلال حركات جسمك بالإنحناء إلى الأمام قليلاً، وأحياناً بطلب التوضيح بأن تضع يدك كصنيوان إضافي حول الأذن، حتى تستطيع أن تسمع ما قيل، وما لم يتم قوله.

التركيز:

طالما انه عكس التشتيت، فلماذا لا نحاول أن نسميه البوأرة؟ ما الذي جعل مصباحا بدائيا متلألأً في ظلمة جبل بعيد مهما جداً؟ وما الذي يجعل كشافات تزاحم بعضها في شوارع مدينة أمراً غير ذي بال؟ إن أضواء المدينة مشتتة (بفتح الشين والتاء وكسرها أيضا)، أم مصباح الجبل فانك تركز عليه لأنه يستطيع أن يصنع بؤرة ضوئية وسط الظلام.

وعند تجميع أشعة الشمس في بؤرة محددة ،فانك تستطيع إن تشعل مادة قابلة للاشتعال، وسواء جئت من الجبل أم من المدينة، فانك تقصد مكتبا ما لإجراء مقابلة، وعندما تدخل لأول مرة، فانك ترى شخصا، يرتدي ملابس جذابة يضفي على نفسه نوعا من الأهمية بأن لا يهب لأستقبالك، بل يشير إليك بيده كي تجلس وهو منهمك بقراءة مادة ما أمامه. انه يدخن وينفض رماد سيجاره أو سيجارته في منفضة زاهية ضخمة ويبدو أن لا مكان لمنفضة أمام الزوار، ربما لمنع الزائر من التدخين، لا شك أن المكتب الذي يجلس عليه فاخر جداً، وهناك مقتنيات آخاذة، فهذه لوحة، وتلك أخرى، ويبدو المضيف وكأنه في الظل، على حين أن الضوء يأتي مواجها لوجهك ويكاد يخطف بصرك.

إن التركيز هنا قد لا يبدو عملياً، وبخاصة عندما تتفاجأ بالسؤال :منذ متى وأنت تنتظر خارجاً؟ فلماذا سأل هذا السؤال وهو لا يزال منهمكاً في عمله؟.

هـل يـريد إجابـة ما؟ لقد حاولت جهدي كي اظهر بمظهر لائق، وهـا هـو لم يـنظر إلي بعد. وتتذكر نصائح بعض الكتب بان نركز، ولكن كـيف يكـون التركـيز؟ إن كـل هـذه المظاهـر والحركات هي محاولة لجعل المكان يوحي بالمكانة، إنها أضواء المدينة، ولا بؤرة فيها فما الداعي للتركيز علـيها أصـلاً ؟ إن هذا هو اسهل الحلول، فهناك حزمة ضوء واحدة تسير باتجـاه مركـزي نحـو لـب دمـاغي، فقـد أتيـت للـتقدم لهذه الوظيفة، وأنا اسـتحقها، فلا شيء في هذا المكان سوى فكرتي (البؤرة).هل هذه أنانية؟ أم انسـحابية؟ كـلا، ولكن عقلي هو استثماري الوحيد، وفي واجبي أن لا أشـتت مـنه وحـدة واحـدة مهما كانت ضئيلة بالنسبة إلى الأخريين.وهذا الشـخص، هـناك (زر) لـيس في سـترته ولا في قميصه، بل في صدره، لو ضغطت عليه لوصلت أسلاك التوظيف في رأسه، وجعلته يوظفني.

حسـناً، فليستمع إلى ردي:" أنني انتظر منذ ثلاث سنوات".... الآن سـيكون لقـاء العيـنين والانطـباع البصـري الأول، ولمـاذا تقدمت للعمل معـنا؟... هـل السـبب هـو ما سمعته عن هذا المكان ؟ سمعة أصحابه ؟ اسـتقرار الشـركة ؟ هـناك إجابـة واقعـية(باردة)."ربما لأني لم أجد فرصة افضل ".... العدسة أمامك أوسع من مرمى كرة القدم أو كل ما عليك أن تواصـل بـوأرة الحـزم الضـوئية كمـا هي في رأسك، ولا تخش شيئاً، فهذا الأسـلوب افضـل مـن الـتذلل والـنفاق والضعة، وفي نهاية الأمر، فانك ملـتزم بحـدود الكياسـة والأدب، لأن هـذا طـبع فـيك، وليس وجلاً من المقـام، والوظـيفة أريدها لمصلحة نفسي، و تحقيق ذاتي، وليس كي اخسر نفسي وذاتي.

إن البقاء على أهبة الاستعداد للتسديد هو عادة، وبوأرة النشاطات باتجاه الهدف الأساسي هي عادة فكرية وسلوكية أيضاً، تتطلب منك قدراً من الصراحة والجرأة، وعدم تخطي الأولويات التي تضعها لنفسك ما أمكنك ذلك، وإذا كنت لا تستطيع الاعتذار عن دعوة مفاجأة لحفل زفاف أو لوليمة طعام، أو لنزهة لعدة ساعات، فإن أولوياتك وبالتالي هدفك الأساسي سوف يصبح في مهب الريح. إن هذه التقاطعات الخارجية وبخاصة التي لا تريدها أنت لقناعتك بأنها مضيعة وقت أحياناً وقد تطيح بجدول مهامك كله، ولذلك اعتبرها رياحاً لا تريد أن تخضع لتقلباتها، وحصن نفسك ضدها بالاعتذار الكيس الفطن، وشرح ما عليك إنجازه في هذا الوقت.

إن مرونتك في الحياة والتعامل، لا تعني أن تكون سهل الانقياد، فأنت يجب أن تقود نحو الأفضل، ومن يطرح عليك فكرة قضاء سهرة في مكان لهو يمكنك أن تقترح عليه محاضرة في نفس الوقت، وأن تحشد له من يشاطرونك وجهة نظرك، وبخلاف ذلك، لن تكون قادراً على فرز وتنقية شبكة علاقاتك بين فترة وأخرى.

إن بوأرة هدف مركزي لا تعني العناد، عناد الناس والأشياء، ولكنها تعني عدم الانحراف عن الهدف، فإذا كنت تكتب رسالة مثلاً، بقلم سائل وانقطع المداد أو جف القلم، فان أسهل الحلول هو تنحية الرسالة جانباً، إن حصل ذلك معك فأنت منذ البداية لم تحسن اختيار العمل المناسب والأولى والأجدى لهذه اللحظات، ربما كنت تبحث عن عمل

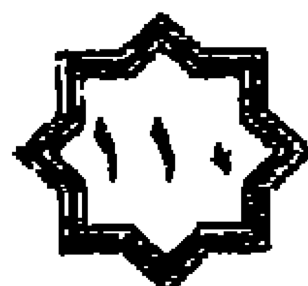
تشـغل بـه نفسـك فـلجأت إلى كتابة الرسالة، وهذه ليست سمة المبدعين المؤشـرين. وهـناك حـل آخـر وهـو مـتابعة الكتابة بقلم آخر....ربما بقلم جـاف، أو بلـون آخر، فالمهم هو الكلمات والمعاني وليس حبر الرسالة... وهذه ليست من سمات المؤثرين المبدعين، فالرسالة كل متكامل في شكلها ولونهـا، وخطهـا، وكـلماتها، وفكـرها. لا شك أن هناك حلا بسيطاً آخر وهو أن تذهب / أو تكلف غيرك أن يذهب / ويحضر لك حبراً وقلماً من نفـس الـنوع، مـع توجيه اللوم الذاتي على هذا الفعل، وعدم تكراره مرة أخرى. يجب أن ترأف بنفسك ولكنها أيضاً يجب أن تقدر وضعك ".

إن هـناك أدوات عقلية تفكيرية يمكن أن تعينك على التركيز، فإذا أردت أن تذهـب إلى مكان ما، ووجدت أزمة سير على الطريق الرئيسي فينـبغي أن تجـد طريقاً بديلاً، لأن الطريق نفسها ليست هدفاً، وإنما الهدف المكان. هذه هي الزاوية الرئيسية لمدرسة التفكير الجانبي(Lateral thinking) الـتي أرسـاها إدوارد دي بونـو مـنذ السبعينات من القرن العشرين، وهي طـريقة اجـتراح البدائل غير الضارة بالهدف النهائي، وهي طريقة معروفة إسـلامياً بقـاعدة " إن الديـن يسـر، ولن يشاد الدين أحداً إلا غلبه " وحتى الوضـوء يمكـن أن يـتحول إلى تـيمم إن خـيف أن يضيع فقدان الوسيلة الغاية.

وهناك أدوات ومواد مادية يمكن أن تعينك في البوأرة، ولاشك أن القـلم أهمهـا وفي طليعـتها، فـإذا تناولت كتاباً لتقرأه فتذكر سورة العلق، وضع الورقة والقلم، لأن فعل القراءة غير منعزل عن فعل الكتابة بالقلم،

وابـدأ فـوراً بتلخـيص كل ما تعتقد أنه مفيد لهدفك البوأري، ويمكنك أن تؤشر بالقلم العادي أو بقلم التأشير، على السطور والجمل والفقرات التي تـبدو أهـم مـن غيرهـا، وإيـاك أن تلقـي الكـتاب جانباً مثل أن تأخذ منه مستخلصاً.

إن البيئة البشرية المحيطة بك، يمكن أن تسهم في بوأرة هدفك، أو في تشـتيته أيضـاً، فاعـرف كـيف تديـر الآخـرين بـنجاح، وكيف تؤثر فيهم، وكيف توجد لنفسك شركاء في رحلة الإبداع، وتذكر دائماً أن هناك أفراداً لا يـريدون أن يتقدموا، وعليك أن تتجنب الحمولة الزائدة لأن الرحلة قد تطول.



المساواة

التميز والتمييز

علـى الرغم مما يقوله كثيرون من أن الإسلام دين العموميات، إلا أن قلـيلاً من النزاهة في الحكم تبين أن كل شيء في القرآن الكريم جاء في موضعه بكل إعجاز وشمولية وتبيان في نفس الوقت، إن الباحثين في علم الـنفس يتحدثون دوماً عن الإنفعالات والعواطف والأحاسيس وعادة ما يـتم الخلط بينها ـ عدا عن أن حدود كل مصطلح منها غير واضح أصلاً، فالغضب انفعال والحب انفعال، والكره إنفعال، والحزن إنفعال، والأسف انفعـال، ويمكن أن نسمي كل ما سبق عواطف، أو أحاسيس، وهكذا نجد أنفسـنا أمـام أوصـاف معومـة جـداً : فهذا عاطفي، وهذا أنفعالي، وهذا حساس، ولكن واقع الملاحظة اليومية، يجبرنا على أن نعدل هذه (المفاهيم) فـنقول إن الإنفعالي قد لا يكون حساساً، والعكس بالعكس، ولو أدخلنا مصـطلح العصـبي أو العصـابي إلى المـيدان لـتعقدت الأمور، ولدخلنا في (مجادلات) حول كون العصابية ـ العصبية ـ العاطفية، الإنفعالية موروثة أم مكتسـبة أم أن الإنسـان يـرث الاستعدادات فقط حيث تنشطها البيئة أو تنحيها، ونجد بعد طول عناء أن البحث لم يكتمل.



ومقـابل هـذا العـناء، فـالأمور ميسـورة في القـرآن الكريم، حيث الحديث يدور حول الحالة النفسية ضمن اشتراطاتها، وليس على إطلاقها بكل عمومية إن الوضع هنا يتم تصويره كما يحدث في الحياة فعلاً، فها هو ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾[1] فهـل سـيدنا يونس عليه السـلام انفعـالي في شخصيته؟ أم أنها حالة من حالات الحياة؟ أما سيدنا إبراهيم فقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بلقب الحكيم في أكثر من حالـة أمـا سيدنا موسى فقد أورد القرآن الكريم حالات خوفه من دخول مديـنة قـتل أحد أهلها، وأوجس (خيفة) من سحر سحرة موسى، ورجع (غضـباً أسـفاً)، ولما سكت عن موسى الغضب، والخوف من الله محمود، والخـوف مـن الـناس لـيس كذلـك، وهكـذا، نلاحـظ أن الإنفعالات أو العواطـف ـ ليست صفات شخصية دائمة في الإنسان، بل قد نجد شخصاً (هادئاً) في عمله، ولكنه غضوب في بيته، والمؤمن الصابر على بلاء الله عز وجل، أو حتى على أذى الناس، لا يصبر لانتهاك محارم الله عز وجل.

لذلك يمكنك أن لا تلقي بالاً إلى هذه الأوصاف المعومة، وان تركز بـدلاً من ذلك على كل حالة حسب اشتراطاتها، فقد وصف الله سبحانه عـباده المؤمـنين بـأنهم: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾[2]. وأوحـى بكظـم الغيظ، بل والعفو عن المسيء ودعاهم إلى محبته بعد العفو بأن يحسنوا:

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٨٧).

(٢) سورة الشورى الآية (٣٧).

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]. ومن نعمه أن ينزع ما في صدور عباده من غل: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وضمن هذه المنظومة، فإن عوامل الخوف لدى المسلم تقل جداً عما لدى غيره من عوامل خوف، وتصبح درجة تعرضه للإصابة بالخوف المرضي (phopia) أهون كثيراً من غيره، ـ هذا إن وجدت ـ وعوامل المس تكاد تنعدم عنده، وكذلك عوامل الغضب لأنه مأمور بالحلم، وكذلك الفرح بما بديه لأنه سبحانه لا يحب الفرحين ولا اليائسين، وهكذا، فإن المسلم لا يخشى شيئاً من أحتمالات ارتفاع المنسوب العاطفي الذي قد يؤدي إلى كثير من الأعراض البدنية التي قد تحد من الإبداع، إن عفوه عمن أساء عنه ابتغاء مرضاة الله يريحه من ضغط الحق ومن التفكير في الإنتقام، وعدم خوفه يجعله أقل عشوائية وتعجلاً عند إتخاذ القرارات، وكل ذلك يعطيه بإذن الله من أمراض العصر التي لا تعيق الإبداع فحسب، بل والقدرة على التأثير في الناس، وهكذا يستطيع المسلم أن لا يتجمد عن توصيفات نمطية بخصوص الإنفعالات وارتفاع حدتها أو منسوبها، بل يمكنه اللجوء إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بشكل ممارسة التفكير أو أثناء العمل، أو خلال عمليات الإتصال والتواصل التي يقوم بها حيثما حل أو رحل.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٤).

(٢) سورة الحشر الآية (١٠).

وبدل أن يتعب الإنسان نفسه وهو يحاول الإجابة على أسئلة معقدة حول مدى عاطفيته وعقلانيته، فإنه يستطيع النظر بعض السلوكيات والاشتراطات والمثيرات التي تجعله يغضب أو يحزن ويتجنبها ما أمكن، وسيجد أن كل ما قيل عن الإخلاط والأمزجة ليس دقيقاً، فهو ليس حاد المزاج، ولا عصبي، ولا غضوب، بل هناك مواقف معينة تضغط زر الغضب عليه، فإن رآها بعد تحليل سلوكه وأخذ معلومات من خاصته غير مناسبة، فإنه يمكنه التخلص منها تدريجياً، وكذلك إن وجد في بيئة مواد منبهة أو مهيجة أو تزيد حساسية أعصابه، فإن باستطاعته أن يتجنبها، وأن يمضي في طريق إبداعه، فالله سبحانه لم يضع له نمطاً مقيداً إلا ضمن الحدود الشرعية المعروفة، إن الفحص الطبي الدوري مهم هنا من أجل الإطمئنان إلى سلامة بعض الأمور من مثل التأكد من قدرة الجسم على تمثيل البر وتينات وكذلك ملاحظة توازن نسب الزنك والمغنيسيوم في الجسم، والانتباه إلى عدم دخول مواد الرصاص إلى الجسم من خلال الدهانات أو المواد التي يشمها الإنسان.

إن المسلم محظوظ من حيث أنه بعيد عن التشاؤم، حيث التشاؤم والتطير من محدودات الإبداع، ومن معيقات التفكير الحر المتدفق بحكم أنهما يصرفان العقل إلى الإنشغال بأمور قد لا يكون لها في الواقع من خلاق، فهو أقدر على ضبط انفعالاته من حيث عدم التشاؤم من الألوان مثلاً، فقد يلبس المسلم لباساً أسود وهو مطمئن إلى أن هذا لون راية علي كرم الله وجهه، على حين يحار غيره ولا يدري أهو لبس الأسود لأنه حزين أم أنه حزين لأنه لبس الأسود، كذلك هو أكثر رباطة جأش من

سواه عندما يواجه أمراً عجباً في نفسه أو من حوله ولا يفغر فاه دهشة لكل حادث بل يحاول على كياسته وفطنته فالمؤمن كيس وفطن، كما أمره محمد عليه الصلاة والسلام وحساس تأسياً بعيسى عليه السلام الذي أحس منهم الكفر، وحدد موقفاً بناء على إحساسه: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

أفلا توضح هذه النبذة السابقة كيف أن الإسلام لم يلجأ إلى إلغاء الأحاسيس أو العواطف، بل لجأ إلى تنظيمها والسيطرة عليها بحيث تظل حالات يمر بها الإنسان، ولكنها لا تطغى على حد تكوين شخصيته كلها، بحيث يكون قادراً على التأثير والإستقطاب بالرحمة واللين وعدم فظاظة القلب: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2]. إن التعامل بهذه الخصال كاف لرد المنسوب العاطفي إلى أحسن حالاته وإنجاح أي لقاء أو اجتماع لأن لين القلب يؤدي إلى نفاذية المعلومات وسهولة التواصل حيث لا يتقولب بمفاهيم جامدة نمطية مسبقة، وإنما يكون متفتحاً للضوء والهواء والماء (مصادر الحياة والحيوية والعلم والمعلوماتية).

(١) سورة آل عمران الآية (٥٢).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

وإذا كـان من الخطأ تصنيف البشر تصنيفاً دائماً قطعياً على أساس الحالـة العاطفـية / هـذا عاطفي أو سوداوي أو عقلاني...الخ / فإن من الخطـأ أيضـاً التجمد عند حدود ما وصله علم التشريع الحالي حتى الآن، والاسـتمرار في اعتبار القلب مجرد مضخة،وإن كثرة الآيات التي تدل على دور القلـب في تحديد طبيعة الإتصال ـ إرسالاً واستقبالاً ـ يجب أن تحضنا عـلى إعـادة الـتفكير بشـكل آخـر، فهـل تـتزايد ضربات القلب في حالة الإنفعـال، لأن الإنسـان مـنفعل ؟ أم أنـه مـنفعل لأن ضـربات قلبه أكثر تسـارعاً ؟ أيهمـا حصل أولاً ؟ لاشك أن المؤثر يسبق الإستجابة ؟ ولماذا يقـال عـن الحديـث (المخلص) إنه صادر من القلب في معظم الثقافات؟، ولـماذا يرمز القلب إلى الحب دائماً في معظم الثقافات أيضاً ؟ للقلـب دورة في تنظيم الحياة العقلية وكافة نواتجها، ولكن ما (أعاق) البشرية عن العمل عـلى اكتشـاف هـذا الـدور هـو الرضـا الذاتـي عن مستوى الإنجاز على المستوى التشريحي، من ناحية، وتأثر الجميع بالمدرسة الأمريكية التي كانت (تقـدس) الذكـاء العقلـي ـ بمعـناه المجـرد، مما أدى إلى إهمال البعد الآخر للإنسان المتمثل في الإنفعالات، إرسالاً واستقبالاً كحالات متغيرة، وليس كصفات ثابتة.

لقـد كـان الأمريكـيون طيلة سنوات القرن العشرين يركزون على (الذكـاء العقلـي) كمفـتاح للـنجاح الشخصـي، حيـث يـتم الـرجوع إلى (اختـبارات) فحـص الذكـاء التقلـيدية في كـل شـيء يـتعلق بالتحصـيل المدرسـي والجـامعي والحصـول على الوظائف، ومنح الفرد فرص التقدم والنمو.

ومن المعروف جيداً، أن معدل الذكاء العقلي كان يساء استخدامه جداً ويصل حدوداً بشعة من العنصرية المقيتة في تصنيف البشر ضمن قوالب جامدة ويروي الفرنسي جيل آزوباردي في كتاب 'اختبر ذكاءك العقلي والعاطفي' ـ mar about ـ ١٩٨٨ ـ إن معدل الذكاء العقلي كان موضوعاً في خدمة أكثر الطروحات العنصرية مغالاة، فقد اقترح وليام شروكلي (الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ومخترع الترانزيستور) أن يتم تعقيم السود الأمريكيين، لأن معدلات ذكائهم العقلي منخفضة !!

ويبين أزوباردي نقلاً عن أبحاث 'مركز القيادة المبدعة' كثرة تجارب فشل أفراد ذوي مؤهلات عالية من حيث معدل الذكاء العقلي في الولايات المتحدة وأوروربا أيضاً، حيث تبين أن سبب فشل الحالات التي تمت دراستها يتمثل في تدني مستوى الذكاء العاطفي وعدم القدرة على التواصل مع الآخرين، حيث أن الفشل في العمل ينشأ غالباً عن أسباب عاطفية أكثر مما ينشأ عن نقص في الذكاء العقلي أو المؤهلات التقنية.

كما بينت أبحاث مارتن سيلغمان أخصائي علم النفس في جامعة بنسلفانيا التي شملت (١٥٠٠٠) حالة أن موظفي التأمين الذين يتم أختيارهم على أساس ارتفاع معدل الذكاء العاطفي يسجلون لنجاحات أفضل ممن يتم تعينهم بناء على أختبارات الذكاء العقلي العادي.

وتدعم ذلك أيضاً نتائج معهد التكنولوجيا المتطورة الأمريكي (bel labs) التابع لمؤسسة (AT٨T) التي أجراها دانيال غولمن / عالم نفس من جامعة هارفارد حيث تبين أن أفضل الباحثين لم يكونوا أولئك الذين

يتمتعون بأفضل معدل للذكاء العقلي، أو الذين يحملون الشهادات الأكاديمية الأرفع، وإنما كانوا أفراداً أهلتهم مزاياهم الشخصية لإحتلال المواقع المركزية في شبكات الإتصال التي يتم تأسيسها في مراحل الأزمات، أو تطوير ابتكارات جديدة، ويبين غولمن أن هؤلاء الباحثين كانوا يحصلون فوراً على أية مساعدة يريدونها، على حين أن أقرانهم الآخرين كان عليهم أن ينتظروا أوقاتاً طويلة قبل الحصول على المساعدة.

وينتهي آزوياردي إلى أن المستقبل هو لأولئك الأشخاص الذين يمتلكون الذكاء العاطفي، ولكن هذا الاستنتاج غير دقيق أيضاً لأن العملية كلها على انسجام الأداء، الذي ينعكس على شكل جودة في النتائج تسهم فيها كل قدرات الإنسان وآلته وآلياته، إذا أتيح لهذه الإمكانات والقدرات أن تعمل في بيئة بشرية مشجعة على الإبداع، لا في بيئة تقمعه.

كذلك لا يزال الاختلاف على التعاريف والمصطلحات، فحينا يعتبر الذكاء الجديد "هو الذكاء العاطفي" وحيناً يسمى "الإنفعالي"، وفي كل الأحول يتم تجنب المصدر الرئيسي له وتحاشي ذكره إلا وهو القلب. تلك المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما أشار إلى ذلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومرة أخرى فإن الفساد والصلاح هما حالتان قابلتان للزيادة والنقصان سلباً وإيجابياً، إنهما قيمتان متغيرتان، بشكل يقطع الطريق على كل من يريدون تقسيم البشر إلى أناس أذكياء وآخرين أقل ذكاء لأهداف عنصرية لا تخفى على أحد.

أمـا أساليب تحديد هذا الذكاء القلبي ـ قياساً على الذكاء العقلي ـ فـلا تـزال موضـع دراسة وأخذ ورد، وإن كان بالإمكان تلخيصها ضمن خطين رئيسين:ـ

الأول: هو القدرة على السيطرة الداخلية.

الثاني: هـو القـدرة عـلى قـراءة المشـاعر (الخاصـة بالفـرد نفسـه وبالآخرين).

هـذا وتـدور معظـم اختبارات قياس الذكاء العاطفي حول هاتين المسـألتين، ولكـن حيـث أن معظمهمـا مترجـم، ويختلف في مدخلاتـه ومخـرجاته أحياناً كثيرة عن واقعنا العربي، فإن الإعتماد على هذه الأسئلة الموضوعة مسبقاً قد لا يكون كافياً.

لقـد جـاء في الحديـث الشُريف أن ليس الشديد بالصرعة (الذي يصـرع الخصـم) بدنـياً، بل إن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب، وهـذا مايذهـب إلـيه المحدثون حين يقولون إن ضبط النفس لا يعني أن لا نغضب بين حين وآخر، ولكنه يعني القدرة على التحكم في هذا الغضب، وفي أسـاليب التعبير عنه، أي موضوع السيطرة الداخلية يتعلق بطبيعة رد الفعـل على متغيرات بيئية، أما في الإسلام، فإن الأصل أن يكون الإنسان حلـيماً، وقـد كـان الحـلم مـن شروط ـ الزعامة ـ القيادة عند العرب قبل الإسـلام، وجـاء الإسلام فعزز هذه الخصيصة بما يجعلها صفة من صفات المسـلم في تعاملـه مـع الآخـرين، وبالحلم، الذي من معانيه سعة الصدر،

وسعة الصدر ليست مجرد تشبيه مجازي، أو استعارة، أو كنية، بل إن لها مدلولها التشريحي الواضح من حيث انفتاح الضفيرة العصبية الموجودة في أسفل القفص الصدري عند ملتقى الإضلاع، وذلك بدفع الكتفين إلى الوراء والبطن إلى الأمام وأخذ نفس عميق على هذه الحالة، لإن الصدر يتسع هنا مادياً ومجازياً، ويصبح الإنسان أكثر ميلاً للتقبل والسيطرة من أوضاع الإنكماش، لأن هذه الوضعية هي وضعية التواصل والانفتاح، بدل الإنسحاب إلى الذات، والإنكماش لأغراض دماغية، وعندما يدفع الإنسان كتفيه إلى الوراء، ويدفع بطنه إلى الأمام، ويرخي فكيه، فإنه يأخذ وضعية التواصل، ويصبح أكثر استعداداً للاستقبال، والإرسال، وبالتالي أحتواء الموقف كله، وبمرور الوقت يصبح الإنسان أكثر حلماً، وتترسخ هذه الصفة (كطبع) سلوكي لديه ينقله إلى من يريد التأثير فيهم، إن الإنسان يغدو عصبياً أحياناً، لأن المقابل كذلك، ألا تسمع عبارة "لقد استفزني..." لقد دفعني إلى هذا الموقف رغماً عني، إن الحليم لا يحتاج إلى الإكثار من الإعتذار إلى الآخرين، ولا يحتاج إلى قضاء أوقات طويلة وهو يؤنب نفسه لأنه تصرف بشكل غير لائق مع هذا أو ذاك، ولا يقضي الليالي مسهداً وهو يفكر في كلمة نابية طائشة قد لا يكون هو المقصود بها، ولا يعني الحلم تبلد الإنسان، أو برودته لأن البلادة تعني أيضاً انعدام السيطرة مثلها مثل عدم السيطرة على النفس، إن (الغضوب) لا يعرف ما يفعل عند غضبه، والبليد لا يعرف ما يفعل أيضاً، فكلاهما يعاني الحيرة، وعدم السيطرة ليس على النفس فحسب، بل وعلى الموقف، إن الإنسان الذي تتخطى درجة حرارته الأربعين درجة مئوية يكون في حالة خطر

صحي، وكذلك من تنقص درجة حرارته عن ٣٥م وهناك حد معقول وصحي للتفاعل الإنفعالي، المهم أن لا تجد نفسك (مجبراً) على ما تفعل لأن الجبر هنا هو عدم السيطرة.

إن هناك أفراد يحبون أحياناً ممارسة الإعتداء (الفكري أو اللفظي أو السلوكي)، إذا شعروا أنهم بعيدون عن دفة القيادة، وقد يبالغون في تجريح الآخرين، أو نقدهم أو الجدل معهم، أو العناد في مواجهتهم، ويمكنك أن تمارس الدفاع الإيجابي هنا، بتشتيت هذه (الطاقة) عند الآخرين، أو عندك، وتغيير وجهة سير المحادثة أو المقابلة إلى آفاق أخرى، بحيث توصل الطرف الآخر إلى الإقتناع وليس الإخضاع هو السبيل السوي لقيادة البشر، من دون أن تبدو مستسلماً لكل ما يقوله الطرف الآخر، لأن هناك من الناس من يحب أن يختبر مدى اقتناعك بمواقفك ودفاعك عن نفسك، إن الشركة التي تريد أن يمثلها أحد المحامين، لن تقتنع به، إذا كان عاجزاً عن توضيح مواقفه والدفاع عن آرائه.

ولا أوصي هنا بأي اختبار محدد لزيادة السيطرة على النفس، وإنما أنصح فقط بالإطلاع المستمر على السيرة النبوية الشريفة، والتمعن في أسلوب السيطرة على النفس التي كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام يتبعها من أجل السيطرة على النفس والمواقف، في تعامله مع أصحابه رضي الله عنهم جميعاً، وفي تعامله مع أعدائه، فليست دروس السيرة مجرد قصص تاريخية، وإنما علينا تمثلها وهضمها والتفكير فيها بكل أبعادها، بأن نضع أسئلة وافتراضات حول مسلكيات مغايرة لما سلكه صلى الله عليه

وسلم، ثم نحاكمها (عقلياً) حتى تترسخ هذه النماذج السلوكية في عقولنا، ونصبح أكثر قدرة على الإقتداء بها، فالإنسان هو الإنسان، والحالات النفسية الأساسية على حالها، وإن علاها الغبار أحياناً بوسائل التغطية المختلفة، وإذ أركز على نموذج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلأن ما نتعلمه من سلوكه فيه خير الدنيا والآخرة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الإلتفات إلى الآخرين المبدعين وتتبع ورصد سلوكياتهم يجعلنا نضع أنفسنا تلقائياً في مقارنات معهم، مما يورث الحزن والإحباط أحياناً، لأن من نشاهدهم في وسائل الإعلام خاصة، هم أناس مثلنا، ولكننا في المقابل، قد لا نملك ما يملكون من مال أو شهرة، أو جمال، أو لياقة، وهكذا تعدو عيوننا إلى ما متعهم الله به من زينة الحياة الدنيا، ونتمنى لو أن لدينا مالهم (قصة قارون واضحة في هذا المجال)، ومع الإنبهار الذي تحدثه هذه المظاهر، فإننا تملكنا رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه هؤلاء بأسرع وقت ممكن، وحيث أن هذا غير وارد في الواقع العملي، فإننا نقلع عن المحاولات بعد فترة قد تطول أو تقصر، ولنأخذ مثال اليافع الذي قد يعجب بأحد أبطال كرة القدم، أو أية لعبة رياضية أخرى، إنه يتابع هذا البطل، ويرصد أخباره وتصرفاته، وقد يقتني صورة، ولكن اليافع لا تتاح له دائماً، إمكانيات التدريب والمتابعة التي أتيحت للاعب النجم، ومع الوقت تترسخ لديه القناعة بأن هذا اللاعب يلعب نيابة عنه (التماهي)، وقد يتحول هذا إلى شعور مرضي غير سوي، وقد ينتهي بالإقلاع عن الإعجاب بهذا النموذج، وبخاصة بعد أن يجد اليافع نفسه وهو يواجه أعباء مسؤوليات الحياة التي قد لا تترك له ترف متابعات كهذه.

كما أن هذا (النجم) الرياضي لا يمكن أن يستمر نجماً مدى الحياة، وهكذا فقد يجد الشخص المتابع نفسه من غير نموذج قدوة، وما ينطبق على اللاعب، ينطبق على الإقتصادي والسياسي والإعلامي وغيرهم من نجوم الحياة التي لا نستطيع تقمص سلوكياتها، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فان نموذجه يصلح لكل زمان ومكان، من أوسع نطاق العموميات، وحتى أدق التفاصيل، إنها خبرات موجودة لكل من يريد الإفادة في كل حين وحال.

لقد تناولت الشواهد الدينية التي أصبحت (برامج) وتوجهات لدى بعض أبرز العلماء في الغرب وبخاصة لدى إدوارد دي بونو، جيل آزوباردي، وغيرهم أما الطرح الإسلامي المستقل للأداء الإبداعي، فيحتاج إلى عمل بحثي متكامل خاص به، وإنما كان الهدف هو التمرين على العودة إلى ما لدينا عندما نواجه بفكرة، أو عرض جديد، وعجم عيدان المقولات المعاصرة ضمن ثوابتنا ويدل التحليل السابق على:

١- الحاجة إلى عدم إلغاء البعد القلبي (العاطفي، الإنفعالي، المشاعر، الأحاسيس) عند تناول الأداء الإبداعي عموماً.

٢- الحاجة إلى وجود نموذج يتميز بقلة المبادئ العامة، واتساع التفاصيل بحيث يصلح برنامجاً تدريبياً ممتداً مدى الحياة.

٣- الحاجـة إلى تعـلم الأشـكال السلوكية الأكثر إنسانية ورقياً وتأثيراً، وإبداعـاً حيـث لا مجـال لأي حكـم نمطـي على أي إنسان إلا من حيث رغبته أو عدم رغبته في تعلم ما ينفعه.

٤- التأكد من أن ما سبق لا يلغي الفروق الفردية، فالإسلام يقوم على تكـامل المتأني، حيث المساواة لا تعني عدم التميز ولكنها تعني عدم التحيز.

العقل

آلية التحكم لا آلة الحكم

إذا تحدثنا عن الدماغ البشري كآلة، تتكون من مخ وأعصاب، وتحدثنا عن العقل كآلية عمل، فإننا يمكن أن نقر بعض التوصيفات المعاصرة من حيث سيطرة مناطق وأعصاب محددة عن نشاطات محددة يقوم بها الإنسان، وتأتي تعبيراً طبيعياً عن دور هذه الآلة والآلية المسماة بالعقل في عقل السلوك والسيطرة عليه وتوجيهه حسب الحكم العقلي الصادر على أمر ما من حيث:

- المعلومات (الحالية والسابقة)
- الخبرات (السابقة)
- المفاهيم
- الإتجاهات
- المعتقدات

وهـذا الـنظام العقلـي المتشابك والمعقد يعمل بسرعة عجيبة جداً، وكمـا يقـول إدوارد دي بونـو فـإن هـناك حوالـي عشـرات الآلاف مـن العمليات التحليلية والتركيبية التي تجري في الدماغ عندما يريد الإنسان أن يـرتدي ملابسـه، ويحـتاج أفضـل وأسرع أجهزة الكمبيوتر ساعات طويلة لإنهائها، فكيف يكون الأمر عندما يعمل العقل على استصدار حكم على موضـوع معين ؟ ما هي التفاعلات التي داخل جمجمة الإنسان حتى يصل إلى هـذا الحكـم ؟ كـيف يـرفض العقل هذا ويقبل ذاك ؟ هل التفاعلات كهربائية عصبية، أم كيميائية ؟ إنها احتمالات معقدة جداً، من المؤسف أن كـثيراً مـن الباحثين لا يزالون يخوضون فيها ليس بناء على أبحاث علمية، وإنمـا عـلى بـناء افتراضـات مسـبقة، فهـذا يقول إن هذه القشرة اليسرى مسؤولة عن كذا وكيت، على حين أن الطبقة الداخلية اليمنى مسؤولة عن كـذا وكيـت، وبالـتالي يـتم تقسـيم البشـر حسـب نوعـية الجـزء الـذي يستخدمونه من أدمغتهم، إن هناك مناطق مسؤولة عن نشاطات معينة يتم رصـدها بوسـائل التصـوير العلمية، وهذه صارت بديهية، أما آلية العمل واتخاذ القرار (العقل) فهي غير معروفة، ولا محددة المعالم.

لقـد وضـعت التصـورات الأولـية حول تقسيم الدماغ بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٠ على يد العالم الفرنسي بول لروكا والألماني كارل فونيكه، اللذيـن توصلا إلى أن موقع الكلام واللغة هو في الشق الأيسر، وبعد مائة عام جاءت أعمال عالم روجر سبيري (جائزة نوبل ١٩٨١) لتثبت انفصال شـقي الدمـاغ وقيام كل منهما بدور خاص، حيث الشق الأيسر هو مركز النشـاط المعـرفي، والشـق الأيمـن هـو مركز التفكير المكاني الزماني الذي

يتحكم بإدراكنا وتصوراتنا، ثم جاء تصنيف الأمريكي ن ـ هيرمان ـ للدماغ (الشق الدماغي الأيمن، الشق الدماغي الأيسر، الجهاز الليمباوي وجهاز قشرة الدماغ) حيث ميز هيرمان بناء على ذلك بين أربعة نماذج عقلية كبرى هي النموذج الليمباوي الأيمن، والنموذج الليمباوي الأيسر، والنموذج القشر دماغي الأيمن والنموذج القشر دماغي الأيسر(١)، وأوضحت أبحاث أخرى أن الدماغ الأيسر يعمل بوجه خاص عند الإنفعالات الايجابية، في حين يتحرك الدماغ الأيمن في حال الإنفعالات السلبية، ويصل آزوباردي إلى مفهوم "التفضيل الدماغي" حيث نعرض مشكلة إلى شخصين، فيلجأ أحدهما إلى شقه الأيمن (الحدس) من أجل حلها، على حين يلجأ الآخر إلى شقه الأيسر (المنهج المنطقي في التحليل والاستنباط، ويعتبر هيرمان وآوزباردي أن هذا التفضيل فطري، وهو أكثر بروزاً عند الرجال مما هو عند النساء حيث يتصل الشقان الأيمن والأيسر بشكل أفضل عند النساء، ولا ينكر آزوباردي أن هذا التفضيل يعتمد أيضاً على العادات الثقافية والتربية والتعليم، فالعمال اليدويون والتجار والمحامون يستخدمون شقهم الأيمن أكثر مما يستخدمه المثقفون والباحثون والتقنيون الذين يكون أكثر اعتماداً على شقهم الأيسر.

---

(١) جيل آزوباري – من أنت – ماريا ١٩٩٩ ترجمة د. عقيل الشيخ حسين – دار الفراشة – بيروت– دمشق.

الخصائص النوعية للشقين الأيسر والأيمن حسب تصنيف أزوباردي

أيسر	أيمن
تعبير لفظي	تعبير غير لفظي
يستخدم الألفاظ للتسمية والوصف والتعريف	يفكر بواسطة الصور ويبرز الصوت
تحليلي	تركيبي
يفكك الأشياء ويحلل إلى العوامل	يجمع الأشياء ويكون القواسم المشتركة
رمزي: يدرك الأشياء على أنها رموز لأشياء غيرها	يوجد التشابهات بين الأشياء المختلفة
مجرد: يعمل على كيفيات وعلاقات معزولة عن الواقع	**ملموس:** يمثل العالم المحسوس (الواقعي أو الخيالي)
زمني: يفهم الزمان كسلسلة متتابعة من اللحظات	**لازمني:** يفهم الزمان كمدة متواصلة
عقلاني: يعمل بطريقة منطقية لإستخلاص النتائج	**تجريبي:** يعتمد على التجربة دون اعتبار للمعطيات القطعية

إن الإختلاف لا يدور حول وجود هذه النماذج أو عدم وجودها، ولكنه يدور حول طبيعتها، فهي لا تدل على وجود تقسيمات قطعية، ونماذج نمطية، ولا يوجد ما يثبت هذه الفرضيات، ولكنها (حالات) قابلة للتطوير والتغيير والتبديل، حسب القدرات العقلية العامة للفرد، ومدى تقبلها للمدخلات أو المثيرات جديدة وهذا التحول الناجم عن المتغيرات الخارجية، الذي يقر به الجميع في مجال المهن، على الأقل يدل أننا أمام حالات متغيرة من الأداء العقلي، ولسنا أمام تصنيفات قطعية جامدة، لا بين رجل ورجل، ولا بين رجل وامرأة.

أما بيرت ديكر في كتاب "فن الإتصال"[1]، فقد تحدث عن تصنيف للدماغ (وبالتالي صنفين من البشر) وقال ديكر إن هناك الدماغ الأول (القديم)، والدماغ الجديد، حيث أن الدماغ الأولي يتكون من النظام الـ المركز العاطفي ومركز الدماغ، والدماغ الأولي مسؤول عن رد الفعل الفطري الفوري، فهو فطري بدائي، عمره يتراوح بين ٣٠٠ ـ ٥٠٠ مليون سنة، وهو يعتمد ما قبل الوعي ـ اللاوعي والعاطفة، ويصدر استجابات البقاء الفطرية المتعلقة بالجوع العطش، الخوف، والجنس، وحفظ النوع، وتشترك كثير من الحيوانات في هذا الدماغ مع الإنسان.

أما الدماغ الجديد يتكون من طبقات القشة الدماغية (١/٨) انش من الخلايا الدماغية والنواقل العصبية، وهنا يجري التفكير الواعي" حيث أن هذا الدماغ عقلاني ومتطور، ويتراوح عمره بين ٣ ـ ٤ ملايين سنة، وهنا مصدر التفكير والذاكرة، والإبداع، والتخطيط واتخاذ القرارات، ولا يشترك في هذا الدماغ أي نوع آخر من الحيوانات.

---

(١) الصادر عن دار كريب – الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٨٨).

والعجيب أن ديكر يؤكد أن لابد للنجاح في التواصل (في التأثير) من مخاطبة الدماغ الأول حيث العاطفة، فالناس مثلاً يتخذون قرار الشراء عاطفياً ثم يبررونه عقلياً، بعد ذلك بسبب قوة عمل الدماغ الأول، الذي يشغل مستوى اللاوعي، على حين يشكل الدماغ الجديد مركز التفكير الواعي، ويخلص ديكر إلى أن لكل إنسان سواء أراد ذلك أم لم يرد عقلين في رأسه، حيث تذهب المدخولات الحسية (sensory inputs) سواء كانت بصرية أو صوتية أو لمسية، أو ذوقية أو شمية (متعلقة بالرائحة)، إلى الدماغ الأول في البداية، ثم تمرر منه إلى الدماغ الجديد المفكر، الذي يعطيها معانيها، وهكذا، فإذا كانت الممرات البصرية مغلقة أو لم يتم تحفيزها بسبب انعدام الحركة أو الإتصال بالعين أو الإيماءات، فإن المعلومات لا يتم تمريرها بسهولة في الدماغ البدائي إلى الدماغ الجديد ، وهكذا في مجال التواصل الصوتي ، فلا بد من التوجه إلى

العقل البدائي للمتلقي إذا أردت أن تتواصل بفاعلية مع الطرف المقابل، لأن هذا العقل البدائي يشكل آلية دفاعية، وقناة لتمرير الإتصالات التي تعطيه مدخولات حسية إيجابية بحيث يسمح لنا بأن نتواصل على المستوى العاطفي، حيث تتم السيطرة على العواطف وقدح زنادها هنا سواء تمثلت هذه العواطف في عدم الثقة، أو القلق أو اللامبالاة بسبب ما تمت رؤيته أو سماعه على مستوى العقل اللاوعي، إن العقل البدائي هو حارس البوابة الذي يقدم الإنطباعات ويولد الحب من أول نظرة، ويوفر إشارات الإنذار من أخطار قد لا تكون قادراً على رؤيتها أو سماعها بعقلك الجديد، ويفلتر المعلومات قبل دخولها إلى العقل الجديد، بحيث يتم إدخالها وفق عمل هذا العقل البدائي.

ومرة أخرى، فإن حديث ديكر، كما هو آزوباردي يتعلق بمهام وظيفية يقوم بها العقل البشري في تفاعله مع المدخلات التي تأتيه، ولكن هذا لا يعني تقسيم البشر على أساس هذه المهام الوظيفية، لأن نفس الإنسان قد يتجاوب بحدسه على شكل محدد مع موقف في فترة ما من حياته، ونجد أمثلة كثيرة لذلك من طبيعة الاستجابة لحركات من الأم في فترات مختلفة من الحياة، وحتى التأثر أو عدم التأثر بنفس العمل الروائي في فترة أخرى.

وكلنا نعرف مثلاً أن شخصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه تميزت دوماً باللين، ورقة القلب في تجاوبه مع المواقف المختلفة، فلماذا اختلف الوضع مع المرتدين بعد الإسلام، حيث أصر على قتالهم ؟ تنقل لنا كتب التاريخ عبارة أبي بكر الشهيرة " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه " ويتم تفسير ذلك بالقول إن العقال استخدم هنا للدلالة على ضآلة القيمة المادية، ولكن للأمر وجهاً آخر، فهناك مواد كانت أقل قيمة من العقال، مثل النسعة (رباط الحذاء)، وإنما أراد أبو بكر أن أثر البعير يدل على المسير (العقال) هو الذي يحدد خط السير، كمركز للتحكم والسيطرة، وكذلك نجد أن من يعتمرون الكوفية والعقال، إذا فقدوا صوابهم، وأرادوا التهيؤ للقتال يرمون (العقال) للدلالة على أن زمام السيطرة قد فلت، ولم يعد هناك مجال للعقل.

فالخبرات المختلفة التي تكون شخصية الإنسان هي التي تحدد طبيعة رد فعلـه، حيـث تمـر الإشارات العصبية عبر المناطق وبالقدر الذي تقرره هـذه الخبرات. فالآلة موجودة بتكوينها الذي يسمح بأنواع شتى من أداء الوظـائف والمهـام، ويقـوم الدمـاغ ـ العقل بالتعامل معها حسب ورودها وحسب ما يختزنه وما يقرره، لا حسب تكوينه البيولوجي فقط.

الانفعالات

عوامل السيطرة والفشل

لقد كتب الكثير عن أساليب مواجهة متاعب الحياة وما تورثه من نكد وكبد وهم وحزن ومتاعب وهموم وضغوطات، تؤدي إلى حالات يختلف الناس في تعريف نتائجها بين إحباط، وندم، ونكوص وهروب.

وقد تباينت العلامات لهذا الوهن من أساليب العلاج النفسي السلوكي، إلى العلاج الطبي بالعقاقير، مروراً بالتنويم المغناطيس والتدليك، وغير ذلك، ولكن من كتبوا عن أساليب علاج حدة الضغط النفسي الواقع على الإنسان تجاهلوا أمراً بسيطاً : إن كل محاولات (التهدئة) والمصالحة مع الذات أو حتى مع الآخرين (بالحديث عن المشكلة التي تسبب الضغط للإنسان) هي حلول مؤقتة، لأن الأصل ان هناك سبباً محدداً لكل توتر على حدة، ولابد من معالجة السبب، فالشخص الذي يعاني مصاعب مالية يمكن أن يروح عن نفسه، يمكن أن يتناول مهدئات وعقاقير، ولكن التوتر الناجم عن هذه المصاعب المالية سيعاود الظهور فور أن يجد الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام مشكلته، وبالتالي فلا بد من العمل على حل المشكلة أولاً، إما بإخضاعها، أو بالتكيف معها بدل الإلتفاف عليها، ولا طبيب للمرء في مثل هذه الحالة إلا نفسه، بأن يشخص سبب المشكلة، ويحللها إلى عواملها الأولية حتى يعثر على السبب

الحقيقي لها، ويحاول علاجه وهنا يأتي دور عوامل التهدئة في توفير الجو المريح أكثر من غيره وإتاحة المجال للإنسان كي يعمل بكل طاقته على حل مشكلته، ولأن هناك مليارات من المشاكل، على اعتبار أن لدى كل إنسان أكثر من مشكلة، فإن من المستحيل وضع علاج واحد لهذه المشاكل، إذ أن كثرة أنواع المشاكل مصحوبة بتباينات حادة بين البشر من حيث تأثير كل مشكلة على كل شخص عدا عن إختلاف شدة وقع المشكلة نفسها من وقت إلى آخر، حيث تكون الأيام الأولى لظهور المشكلة أكثر صعوبة من الأيام التالية أحياناً، وأحياناً يكون العكس هو الصحيح، عندما تأخذ ردود فعل الإنسان على نفس المشكلة طابعاً تصاعدياً قد يوصله حد الإنفجار.

إن من البدهي أن يكون الإنسان قادراً على التحرر من الضغوط - غير المبررة - ومن كل دواعي القلق غير الإيجابي حتى يكون مبدعاً في أدائه التفكيري والسلوكي على حد سواء، ولكن هناك مشاكل تجعل الإنسان يقف عاجزاً أمامها عن فعل شيء، وتظل تشكل عوامل اضطراب تؤثر سلبياً على كل نشاطاته، وكما سبق القول، فإذا كان هناك شخص مؤهل لأن يكون مبدعاً ولكنه يعاني ضائقة مالية يرزح تحت ضغوطها ليل نهار سواء كانت تتمثل في احتياجات أساسية لا يستطيع تلبيتها، أو كانت مرضاً يعاني هو أو أحد المقربين منه، ولا يستطيع تحمل تكاليف العلاج، أو ديوناً فوق طاقته، وغير ذلك من مظاهر الإعسار، وماذا يفيد هذا الإنسان لو نصحناه بأن يظل يأخذ نفساً عميقاً وأن يرخي أصابع الإبهام في يديه وقدميه، وأن يجلس جلسة مريحة ؟ إن كل هذه تفيد فقط في منحه هدنة مؤقتة كي يفكر أثناءها

بشكل أكثر صفاء، في حلول مشاكله، فإذا لم يستطع خلال فترة استراحة المحارب هذه أن يحل هذه المشاكل، فإنها سرعان ما تعود إلى ساحة المواجه الذاتية بعنف أشد، بل إن الإنسان يكون قد أصيب بالإحباط من وسائل (العلاج) التي جربها، وتتكرر مشاهد استعصاء المشاكل عند الأطفال، وعند المراهقين، وعند البالغين بين مشاكل تتعلق بعدم التقبل من قبل الآخر سواء كان هذا الآخر زميلاً أم صديقاً أم شريكاً أم والداً أم أبناء أم بيئة عمل، وهناك أيضاً مظاهر العجز (البدني) سواء كان خلقياً أم نتيجة حادث مفاجئ، وهناك مشاكل فقدان شخص عزيز، ويمكن أن تكون المشكلة ابتلاء في النفس أو في المال، فإن كانت في المال فلا تخسر نفسك، وإن كانت في النفس فلا تخسر مالك، وإن لم تكن مسؤولاً عما حاق بك، فكن ليناً هيناً مع نفسك، وإذا لم تجد حولك أحداً، فتذكر أن الله موجود، وهو أرحم بك من نفسك، إن لديك مرجعية جبارة، تملك كل شيء، ولا يعوزها شيء، فالله سبحانه لا يملك فحسب، ولكنه كريم أيضاً، وما من نعمة وجدنا أنفسنا محرومين منها إلا ويعوضنا عنها في العاجلة أو في الآجلة، كما أنه لا يحاسبنا إلا على ما أعطانا، ووجود هذه الفكرة في عقلك، يتيح لك هوامش واسعة للحركة والعمل بلا محددات، فالمحدد لسلوكك واحد، والمرجعية واحدة، وطالما أنك تسعى بجد لعدم تعدي حدوده، فكن مطمئناً إلى أنه سيدافع عنك، إنه عقد لا يوجد مثله، فإذا قمت بما عليك، فإن كل ما سيحصل معك خير لك، وإن لم تتبين هذه الخيرية في نفس لحظة الضيق، فإنك سوف تدركها لاحقاً ولا تعلم متى، إن الله ليس قوة عظمى تتعهد بحماية كيان صغير، بل إنه القوة المطلقة، أولاً وآخراً، وعجباً لمن يبرم هذا العقد ويظل بعدها في نفسه خوف من إي شيء.

إن هـذا ليس كلاماً انشائياً بل إنه ضرورة حياتية للمبدع الذي قد يحـتاج أن يواجه مجتمعاً كاملاً أحياناً، ومهما كان حجم المشكلة، فإن على المـبدع أن يوقن أنه ليس بمفرده، فلا تخش شيئاً وأنت مع الله بكل اسمائه الحسـنى وصـفاته العليا، فاطلب ما شئت من عون ومدد مادي ومعنوي، وتذكـر أن أهم ما يحتاجه المبدع هو العلم، والعلم من عند الله، فاطلبه في مكانـه الصـحيح، وكـن عـلى يقين مطلق، بأن ما حصلت عليه بعد بذل غاية الجهد هو أفضل ما تستطيع الحصول عليه.

وبعـد أن تسلم، وتسلم، وتستسلم، يمكنك أن تجلس كيف تشاء، وأن تتـناول من الطيبات ما شئت، ولن تكون بحاجة إلى تنويم مغناطيسي بـل إنك تحصل على يقظة مغناطيسية عالية، تمكنك من الإنطلاق والبداية بما هو متيسر لك، دون أن تثنيك قلة الإمكانات أو ما يبدو لك أحياناً من استحالة المسافات.

وإذا اعـتقدت لحظـة أن خواتـيم أي أمـر هـي بيدك، فتذكر الهواء الـذي تتنفسـه كـي تعـيش... هـل تملك منه شيئاً ؟ إنك مخول بما لديك، ومسـؤول عنه فكن مطمئناً طالما أنك لا تسيء استخدام ما لديك من أي شيء.

أما باقي النصائح النفسية حول ما تفعل، وما لا تفعل، فخذها من القـرآن الكـريم والسـنة النـبوية المطهرة، وستجد أن ما يقوله علم النفس الحديـث (الأمـريكي والغـربي عمومـاً) لا يحتوي على كل هذه النصائح الجامعـة المانعـة، ولنأخذ مثلاً قضية الندم الذي لابد أن يصيب أي إنسان

عند أي منعطف خطر يمر به، لقد تمت معالجة هذا الإضطراب بشكل علمي واقعي في سورة القيامة: "لا أقسم بيوم القيامة (١) ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢)" لقد جعل الله سبحانه قسمه بيوم حسابه النهائي الأخير متبوعاً بقسمه بالنفس اللوامة، التي تحاسب صاحبها، للدلالة على أهمية النقد الذاتي في قياس وتقييم الأداء فذاك حساب شامل، وهذا حساب جزئي قريب ممكن ومتاح لك إنسان، وحين يصبح (اللوم) لما فيه من رفق في الحساب، قاعدة عمل يومي فإن الإنسان يمكنه أن يلجأ إلى دفتر يومية سلوكية يدون فيها خبراته وتجاربه، سالبها وموجبها، وسيجد بعد مرور زمن بسيط، إن لديه سجل "دراسات سابقة" للمشاكل التي تواجهه، بحيث لا يكون مضطراً لاستغراق نفس الوقت في التفكير كلما واجهته مشكلة مماثلة، إذ يكفي أن يعود إلى دفتره فقد يجد خبرة مماثلة واجهها بأساليب معينة ولكنه نسي في خضم إنشغالاته أسلوب الحل هذا عندما ظهرت المشكلة الجديدة.

واللوم لا يصل حد تعذيب الذات أو حتى القساوة معها، "وفي الحديث الشريف" فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان"، فالوقفة مع الذات ليست اجتراراً مقيتاً لما فات، ولكنها عملية محاسبة عملية بهدف معالجة ما يمكن علاجه، للإفادة من التجربة مستقبلاً، فإذا تبين من هذه المحاسبة وجود تقصير أو إساءة استخدام من ناحيتك، فدون ذلك بشجاعة، واعترف به، ووطن نفسك على عدم العودة إلى هذه الممارسات التي سببت لك فشلاً من أي نوع، وتابع مسيرتك إلى الأمام بكل ثقة بالله،

وبنفسك التي أكرمها الله بهذا القسم العظيم، ولا تجعل السلوك الذي حبط، يتحول إلى شعور نفسي بالإحباط، إذ كما أنه يوجد فشل لكن لا يوجد إنسان فاشل، فإن هناك عملاً محبطاً ولكن ينبغي أن يكون هناك إنسان محبط، وحتى لو كان السلوك السيئ، فيه تفريط بحق من حقوق الله عز وجل، فإن المجال أمام التوبة وتصويب السلوك متاح ومطلوب إنه ليس حقاً لك فحسب، بل هو واجب عليك أيضاً.

إن الله سبحانه قد خلق الحياة بكل ما فيها لتسير نحو أقدارها، وهي ستواصل السير، وعليك أنت أن تقرر: هل تدعها تسير من دونك؟ أم أنك ستسير؟ وأين هو موقعك منها؟ وأين هو موقفك مما يجري معك ولك ومن حولك؟.

أما شبكة العلاقات، فالحديث عنها يطول، إنها الوسط البشري (البيئة) التي قد تدفعك إلى الأمام أو إلى الوراء، وقد ركز عليها الإسلام سواء من خلال التركيز على الجماعة ككل ـ أو من خلال التركيز على شبكة العلاقات الفردية ـ الأقران والأخلاء والصحاب ـ وكما يقول علماء النفس، فإن من الضروري أن يحيط الإنسان نفسه بشبكة من العلاقات الإيجابية، ولكن الغاية النهائية لإقامة هذه الشبكة هي نقطة التقاطع التي يختلف عندها الإسلام مع المتحمسين لإقامة الشبكات المعاصرين. حيث تأتي المصلحة مع الإهتمام (interest) تدل على الإهتمام أو على المصلحة معاً.

أما في الموروث الإسلامي فالمصلحة مرتبطة بالصلاح، والغاية النهائية هي الحب في الله، ولله، بعيداً ليس عن المصلحة ـ بمفهومها الذي نعرفه نحن ـ ولكن عن البراغماتية (النفعية) المفرطة، والانتهازية المؤقتة، والضوابط الإسلامية هنا قد تبدو صارمة، ولكنها تهدف مصلحة الإنسان النهائية حيث أن الغاية النبيلة بحاجة إلى وسيلة نبيلة مثلها، والغاية لا تبرر الواسطة، إلا عندما يكون هناك ـ فصام ـ ولاشك أن تماثل الأهداف / الغايات مع الوسائل يجعل الإنسان أقل تمزقاً، وإن لم يكن الإنسان يعرفها، فهو يستطيع أن يسأل عنها بسهولة، وعندما يأخذ الإنسان حكمه على الأشياء من خلال شرعيتها أو عدم شرعيتها، فإنه يريح نفسه من حسابات معقدة للأرباح والخسائر، قد لا توقعه إلا في الحيرة، مما يجعله أكثر قدرة على التفرغ التفكيري والنفسي للتوجه إلى آفاق جديدة في أدائه الإبداعي، إن كثيراً من التفاصيل التي تستنزف الإنسان المعاصر وتستهلك طاقاته الإبداعية لا مكان لها في حياة المسلم فهو مستريح منها لأنه لا يفكر بنفاق هذا أو ذاك من أجل منفعة ـ إذا كان الله سيمنحها له فلا يوجد في الأرض من يمنعها ـ كما أنه لا يلجأ إلى الغيبة والنميمة وما تحتاجه من جهد بين دفاع وهجوم ومخاوف وأحقاد، ولا ينشغل بحسد أحد على ما أتاه الله، ولا ينشغل بالجدل وتسجيل النقاط لأنه مأمور بأن يأخذ حديث أخيه على أحسن محملة، بل إنه لا ينشغل بالخانة الأخيرة من ربحه أو رزقه بعد أن يبذل جهده في الإجراءات، ولا يأسف على صنيع حسن لم يقابله الآخرون بمثله، لأنه كان يستهدف رضاهم من أجل رضا الله، وليس بانتظار رد فعل الآخر كهدف نهائي، وتطول قائمة مصادر التوتر المشطوبة

مـن حـياة المسـلم الحـق، ويـؤدي شطبها إلى صفاء الفكر، ومحاولة إضفاء وإضـافة قـيمة جديـدة عـلى الأفكـار والسـلع والخدمات التي يتعامل بها الإنسـان، وبذلـك يصـل إلى ذروة الإبـداع في السلوك ومرة أخرى، فإن التركـيز هـو عـلى الإنسـان المبدع في أدائه، وليس مجرد إبداع مركبة تسير على مثلثات بدل العجلات، إن السلوك الإبداعي الشامل ـللفرد ولبيئته ـ يولـد إبداعـات مادية جديدة يومياً، أما الإبداعات الفردية التي تركز على الـنواتج النهائـية فقـط، فقـد لا تصـل إلى شيء، وإن وصلت، فإنها تظل حالات فردية معزولة.

إن شـبكة علاقـاتك تسـهم إلى حـد بعـيد في مـدى تقيـيد مـدى إبداعـك، أو إطـلاق طاقـاتك ويـنبغي أن تـبدأ فـوراً في العمل على هذه الشبكة من خلال عدة خطوات:

- حـدود مسـاحة هـذه الشـبكة أفقـياً وعلـيك أن تجيـب على السؤال الـتالي:ـ أيـن أريـد أن أصـل بعلاقاتي؟، زملائي في نفس الشعبة / الصـف / القسـم / فـريق العمـل / الشـركة ككـل / داخل البلاد وخارج البلاد.

- حـدد ارتفاع هذه الشبكة عامودياً :ـ أين أريد أن أصل ؟ أفترض أن مستواي الحـالي هـو مسـتوى الصـفر، فـأين أريـد أن أصل ؟ على مسـتوى بيـئة المجـتمع المحلـي ؟ والمجتمع العام ؟ والعالم ؟ حدد آليات الوصول والتواصل مع هذه المستويات ضمن إمكاناتك وقدراتك ؟.

- حـدد مسـتوى الإندماج في هذه الشبكة : من أريد أن أجذب ؟ وإلى أيـن أنجـذب؟ وأيـن أحـافظ عـلى التواصـل ؟ والتواصـل الفعال؟ والإندمـاج؟ إذا كانـت هذه الشبكة هي ثمرة مشمش ناضجة : فأين القشـرة ؟ وأيـن اللب؟ وأين النواة التي لا تنكسر؟ من هي المجموعة المحورية التي يمكن لي الركون إليها مادياً ومعنوياً ومهنياً وعاطفياً ؟.

- حـدد مسـتوى الإعـتمادية المتـبادلة الموجودة والمرغوبة، من أجل أن تصـل إلى العلاقـات المنتجة، والعلاقـات غـير المنتجة، إن الـبعض يقولون إن ٨٠٪ من كل ما تحصل عليه من علاقاتك يأتي من٢٠٪ فقط من هذه العلاقات، وأن ٨٠٪ من هذه العلاقات لا يسهم معك إلا بنسبة ٢٠٪ ممـا توفـره لـك علاقـاتك، ولا خجـل هـنا، فهناك شـخص قـد يكـون أهم من عشرة أشخاص، كما عليك أن تحدد ما تعطي ومتى ؟ وما هو المتوقع منك، وفي كل الأحوال، فإن التوقعات المتـبادلة يجـب أن تكـون واضـحة تمـام الوضـوح، انه بمثابة عقد غير مكتوب، فاحرص على أن يكون العقد متكافئاً لا عقد إذعان.

- اعمل على قياس وتقييم وتقويم أدائك ضمن الشبكة، وكذلك خطط عمـلها بين فترة وأخرى وخلص هذه العلاقات من أي سوء فهم أو خلافـات قـد تتراكـم بحيـث يصـعب عليك لاحقاً تحليلها وردها إلى عوامـلها الأولـية، وهـنا لابـد مـن الوضـوح أيضـاً من حيث تحديد المواقـف، والاتجاهـات العامـة والتفصيلية، واعمل على تنقية وفلترة هـذه العلاقـات أولاً بـأول، وبأقصى درجة من الصراحة، وأقل قدر من التشنج.

- أنظر في دفتر عناوينك، وحاول التخلص من عادة تسجيل الإسم ورقم الهاتف ضمن سطور مرصوفة فقط، بل الجأ إلى دفتر حساب أستاذ تسجل فيه اسم كل واحد من شبكتك، وترصد على صفحاته الخط البياني لكل علاقة، حتى تحفظ مالك عند الآخرين، وما للآخرين عندك، من مواقف واتجاهات، وتذكر أن هذا الدفتر هو دفتر الحساب الحقيقي الذي لا تقل بنوده أهمية عن الحسابات المالية للزبائن أو العملاء.

كثير من الدراسات تراوح ضمن منزلة ما بين منزلتي الإفراط أو التفريط، فالبعض يقول إنه عندما يتعلق الأمر بالإبداع، فإن القاعدة بسيطة وتتلخص في "أنك إذا استطعت أن تتقن أي شيء فإنه يمكنك أن تتقن كل شيء ومادام هناك شخص يستطيع عمل ذلك، فإنني أستطيع أن أفعله أيضاً"، ومقابل هذا الإفراط في التفاؤل، فإن هناك تفريطاً مقابلاً يقول إن الموهبة قصر على نخبة معينة، وتتباين التقديرات في تحديد هذه النخبة، فالبعض يعتبرها نخبة علمية والبعض يعتبرها نخبة وراثية معينة (عائلة معينة) أو حتى عرقاً بشرياً دون غيره من الأعراق. المذهب الأول يجعل الإنسان يشعر أنه فوق الجميع (superiority) وأنه الإنسان الخارق، الذي لا يقف في وجهه شيء، أما المذهب الثاني فيؤدي إلى الشعور بالدونية عند غير النخبة (inferiority)، مما يجعل الإنسان يشعر أنه دون الآخرين وأنه لا يستطيع أن يقف في وجه أي شيء، فإذا أفرطت في تقدير قدراتك وفق المذهب الأول فإنك قد تنتهي إلى مناطحة الجدران الصماء، وإذا فرطت في تقدير هذه القدرات، فإنك لن تحاول فتح باب موصد في وجهك.

ومرة أخرى، فإذا كانت لديك قناعات دينية، فسوف تخرج بسرعة من إسار أي من هاتين الحالتين، بأن تعرف بأن الحياة تقوم على تكامل التناقضات وأن لكل إنسان نصيب ليس شرطاً أن يكون مساوياً لنصيب سواه ولكن كلاً ميسر لما سخر له.

إن وجهة نظر ليست قدراً تلازمك طيلة عمرك، فقد يحدث أن تحقق نجاحاً ما فتشعر بنشوة الإنتصار، وتتخيل أنك لن تهزم أبداً، ويحدث في المقابل أن تفشل في موقف ما فتظن أن ليس لديك نصيب من النجاح، وكلما كانت سرعة القفز بين الحالتين أكبر كلما تراكمت الضغوط النفسية عليك، ولم تعد تستطيع اتخاذ القرار الصحيح في كل موقف لأنك إما أن تريد كل شيء، أو لا تريد أي شيء إطلاقاً.

إن النماذج العقلية ومنها نماذج النجاح والفشل تسعى إلى الإستقرار السريع كي تعود فتتغير، هذا هو دأب المخ البشري كجهاز صانع للنماذج العقلية، ولذلك تلقى هذه الفرضيات أسواقاً رائجة، ولنأخذ مثالاً نموذج الشاب المراهق الذي يبحث عن فتاة أحلامه.

لقد تعرف إلى عدد من الفتيات حتى الآن، وكان مضطراً في كل مرة لأن يقول لكل واحدة: "أنت حياتي، وأنا لا أستطيع أن أعيش من دونك"، ولكنه عاش، وفقد فتاة تلو فتاة ولم يمت، فهل كان يكذب؟ ليس شرطاً، لكن المشكلة أن هناك نموذجاً للحب يريد الإستقرار بسرعة، ولذلك يتسرع الشاب في الحكم، إنه يريد أيضاً أن يجد غاية لحياته، ولعل نافذة الجيران هي أقصر الطرق، ولذلك نجده عند فشل التجربة بحالة تشبه

حـال مـن يريد اعتزال الحياة والناس ومشاريعه أو ربما ينعكس ذلك على شـكل ميل للعزلة، أو حتى عزوف عن التحصيل الدراسي وعن الهوايات الـتي كـان يحـب ممارسـتها، لقد كان صادقاً عندما قال لها إنها حياته، فقد شعر أن علاقته بها تجعل نموذج الحب يستقر عنده، فنزع تلقائياً إلى سحب هـذا الـتوازن عـلى حياته كـلها، فلما انهارت التجربة، شعر بانهيار كل شيء، فهل يعني ذلك أن هذا الشاب (عاطفي) أكثر من زميله الذي عاش تجـربة مماثلـة في الفشل، ولكنه تابع حياته الدراسية كالمعتاد؟ ليس التعـميم صـحيحاً تمامـاً، ولكـن اشـتراطات البيئة والمفاهيم والمعتقدات مختلفة لدى الشـابين، إذ ربما نجد من اجتاز هذا الإختبار بنجاح، قد انهار عندما توفى الله أمه، فهل أصبح (عاطفياً) بعد أن كان عملياً؟ أيضاً ليس الأمر كذلك، فهـناك حـالات واشـتراطات هـي التي تصبغ نتيجة الحالة العامة للفرد في فترة معينة، ونأخذ مثلاً امرأتين، أحدهـما (تجيد) البكاء لأي سبب ـ قريبة العـبرات ـ وامـرأة أخرى قل أن تبكي، ولو عرضت عليك المرأتان وهما تبكيان دون أن تكون لك سابق معرفة بأي منهما، لاكتشفت بسرعة درجة حـرارة دمـوع المرأة التي لا تبكي إلا نادراً، ولعرفت أي المرأتين نزلت بها نازلة حقيقية.

ولو أخذنا مثلاً آخر: ضفدع، وإناءين من الماء، الإناء الأول به ماء يغلي وتحته لهب، والإناء الثاني به ماء لم يسخن بعد وتحت لهب أيضاً، فلو وضـعنا الضفدع في الإناء الذي يغلي لوجدنا أنه يقفز خارجاً بسرعة، أما إذا وضعناه في الماء الأبرد فإنه يقبع وقد يسترخي حتى يتم سلقه، إن درجة واحـدة هـي الـتي تصنع الفرق بين ماء يغلي، وماء عادي، ولكن متى يتم

تحديـد هـذه الدرجة على المقياس النفسي؟ لابد من دراسة كل حالة على حدة، بدل الإفتراض التعميمي السهل الذي يريحنا دائماً، ولكنه لا يوصلنا أبداً إلى تفسيرات علمية معقولة لكثير من الظواهر.

لنعد الآن إلى الافتراضيين السابقين:

هـل تعـتقد أنـك تستطيع أن تفعل أي شيء قد يفعله أي شخص آخر ؟ أو تعتقد أنك غير قادر على إبداع أي شيء؟.

لنفترض أنه قد تم توجيه السؤال إليك وأنت تتسلم شهادة التخرج بعـد أيـة مـرحلة دراسية اجتزتها بنجاح باهر، ألا تحسب أنك ستميل إلى الرد بالإيجاب على السؤال الأول.

الآن لـنفترض أن السـؤال قـد وجه إليك في أعقاب تجربة عاطفية مأسـاوية، أفـلا تحسـب أيضـاً أنك ستميل إلى الرد بالإيجاب على السؤال الثاني.

إن قدرتك هي ذاتها (من ناحية عقلية)، ولكن الحالة العاطفية هي التي اختلفت من حيث وضعك في إناء ماء يغلي، لذلك نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع التعوذ من الأمرين معاً "اللهم إني أعوذ بك مـن الهـم والحـزن". الهـم ـ بصـفته كابحـاً للنشاط العقلي المباشر، والحزن بصـفته كابحـاً عاطفياً أيضاً يؤدي إلى الكبح أيضاً حتى لو بقيت القدرات العقلية على حالها.

إن لكـل إنسـان قـدرات فردية مختلفة عمن سواه، وليس صحيحاً إطلاقـاً الـزعم بـأن أي إنسان يستطيع عمل أي شيء، فمن يبدع في قيادة فـرقة موسـيقية لـيس شـرطاً أن يـبدع في قـيادة طائرة، ومن تبدع في أداء رسـالتها كـأم قـد لا تـبدع بـنفس القـدر في إدارة مشـروع تجاري، ولابد للمجتمع الذي يريد تبني منهج إبداعي أن يأخذ بالحسبان الفروق الفردية، ولا يعـني ذلـك في المقـابل، مـنع أفراد تنقصهم بعض القدرات من تلقي العـلم في المـدارس العامة العادية، فهذا حق مكفول لهم شرعياً (ووضعياً في بعـض المجـتمعات)، ولكـنه يعـني أن المـنهاج يجب أن يكون مرناً بحيث يـراعي هـذه الفـروق سواء لدى الأفراد العاديين، أو لدى ذوي الحاجات الخاصة.

إن التنوع في القدرات هو مصدر ثراء أية بيئة بشرية.

كما تفكر تكون :-

إن هـذه الحكمـة اليونانـية القديـمة التي تحث على بناء إطار عقلي إيجـابي للفرد حول نفسه، يساء استخدامها أحياناً بحيث يفهم منها أن كل إنسان يستطيع أن يصبح ما يريد متى ما أراد، وهذا الإفراط يجعل الإنسان يغـالي في الـتفاؤل الفج، فلكل نتيجة أسبابها، ولكل نتيجة مقدماتها، ولا تكفي المغالاة في بناء تصورات إيجابية عن الذات لجعل الإنسان إمبراطوراً عـلى الدنـيا، إذ لا أحـد يعـرف بـرنامجاً علاجياً يمكن أن يؤدي إلى ذلك، باستثناء حـبوب الهلوسـة التي تؤدي إلى التفريط بالمقدرات العقلية للفرد وتدميره على أبشع ما يكون التدمير.

ولا يعـني مـا سبق أن يقع الإنسان في الخانة السلبية المقابلة، بمعنى أن لا يعـير تصـوراته عـن نفسـه أي اهـتمام، بـل تعـني أن يشـحن نفسه بشـحنات إيجابـية مـن الـتفاؤل والأمل، ضمن إدراك تام لأهمية العوامل الذاتـية والعوامـل الموضـوعية (الشخصـية والبيئية) أو ميزان الموجودات والمطلوبات المتوفر لميزانيته العقلية، ولا يحق للإنسان مثلاً بأن يصنف نفسه بأنه فاشل، حتى عندما يكون تاريخه حافلاً بحوادث الفشل في هذا المشروع أو ذاك، بـل يمكـن له أن يقـول لقـد فشلت في كذا وكذا، دون أن يصف نفسـه بالفاشل "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" ولم يقل ولا تنازعوا فتصبحوا فاشـلين، لأن التركـيز عـلى الحالـة العملية وليس على الصفة الشخصـية، لذلـك يمكـنك طرد هذا المصطلح من قاموسك وقاموس من حولـك ممـن يمكـن لـك أن تؤثـر فـيهم، حـتى يـتوجه النقد والتقويم إلى

السلوك وليس إلى الإنسان، وإذا كنت تستطيع أن تستذكر تجارب فشلت فيها، فإنك تستطيع في المقابل أن تستذكر تجارب أو مواقف نجحت فيها، وعلم الغيب ليس بيدك آخر الأمر، وكل ما بيدك هو أن تأخذ بأسباب النجاح مراراً وتكراراً حتى تنجح، إن الجيش الذي خسر معركة ما لا يستطيع أن يدخل معاركه اللاحقة وفي ذهنه وبرامج إعداده المعنوي صور ذلك الفشل ومن حسن حظ الإنسان أن تكرار فشله قد لا يدمره مهما كان عدد مرات فشله، ولكن نجاحه مرة واحدة قد يوصله إلى القمة.

إن الجميع في بداية القرن الحادي والعشرين يتحدثون عن بيل جيتس صاحب شركة ميكروسوفت بصفته أحد نماذج الإبداع على مستوى العالم، لأن ثروته قدرت بإجمالي دخل ١٠٠ مليون مواطن أمريكي، ولكن أذكر أن الكاتب الأمريكي لي بويف أشار في أحد كتبه إلى عدد المرات الفشل التي مني بها جيتس مثنى وثلاث قبل أن يثبت أقدامه في حقل البرمجيات ويبتعد عن مجال عمله الأصلي في الأجهزة.

ولكن كل أمثلة الدنيا لا تستطيع أن تزيل مرارة فشل واحد، ولا يعرف مرارة التجربة إلا من عاشها، ولكن ما لا ينبغي السماح به هو تكوين صورة الفاشل في ذهنك، ومن المعروف في هذا المجال، أن سلوكيات الإنسان تأتي في أحيان كثيرة مطابقة لتوقعات الآخرين منه، فإذا كنت قد كرست في ذهن طفلك أنه يجب أن يحصل على درجة (أ)، فإنه سيشعر بالخجل، وهو يقدم شهادة تقييمه المدرسي، على حين أن طفلاً أخر يظل والداه يركزان على أنه سيفشل، يطير بتقدير(ج)، لأنه تجاوز

توقعاتهما، ولا يملك المراقب البعيد إلا أن يشعر بالدهشة فهذا الذي حصل درجة(ب) محبط، والذي حصل على درجة (ج) يشعر بنشوة النجاح.

فإذا لم تكن البيئة البشرية مواتية من حولك، فلا تذعن لهذا التصنيف، وابحث عن بيئة مشجعة ومتفهمة لك، قبل ان (تنمط) شخصيتك وتسمها بالفشل وعد إلى نفسك ومن حولك وحاول استخلاص العبر والدروس تمهيداً للمبادرة إلى المحاولة التالية حسب توقعاتك الواقعية والحقيقية، وليس حسب التقسيمات القطعية الحادة بمعنى أن تستعرض سجل تجاريك بل ومفرداتك التي تستعملها : فإذا وجدت عبارة "إنني فاشل" فاستبدلها فوراً بتحديد التجارب التي فشلت فيها جنباً إلى جنب مع التجارب التي نجحت فيها. فالنجاح نعمة من نعم الله عليك لا يجوز إنكارها، ووجود الغيوم يحجب الشمس ولكنه لا يلغيها. كذلك استعرض مفردات "لا أقدر، ولم أكن أعرف أنني لا أعرف، إن هذا يبدو مستحيلاً، لم أكن اقدر، أن هذا ضرب من المستحيل"، وستكتشف بعد إعمال عقلك مكامن الأخطاء، فتذكر أن القدرة على توليد البدائل العقلية هي نعمة من الله عز وجل، فقد تحتاج إلى تعديل أهدافك ـ المرحلية أو النهائية ـ ولا عيب في ذلك، فالرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فلا تبالغ في جلد الذات، وإنما هون الأمر على نفسك دائماً، وعاملها بلين ـ ولكن من دون ضعف وبحزم ـ ولكن من دون عنف.

إن الإعتراف (الإيجابي) بالفشل يحتم عليك أن تدرك وجوده وأن لا تتجاهله على أن تقرر في نفس الوقت عدم الخضوع له، فنظرتك الواثقة إلى الأفق البعيد يجب أن لا تمنعك من رؤية الحفرة التي توشك على الوقوع فيها.

وحتى لا تقسو على نفسك كثيراً، فإن المرء يفشل أحياناً بسبب تغير ظروف بيئية لا قبل له بها، فالذي افتتح ورشة لصيانة الآلات الطابعة، في بداية التسعينات من القرن الماضي، لم يكن يتوقع أن يكتسح الكمبيوتر هذه الآلات ويجعلها شيئاً من الماضي، ولا يمكن عد الصناعات التي كانت مرتبطة بالآلات الطابعة من حبر التصحيح الطامس، وحتى الورق الكربوني (الذي كان يتيح الحصول على أكثر من نسخة بوضع ورقة الكربون بين ورقتي الطباعة)، ولم يكن كل العاملين في هذا المجال مؤهلين للقفز مع ثورة الكمبيوتر، ولكن الفشل ـ كنتيجة ـ لا مفر من الإعتراف به، وإن كانت أسبابه موضوعية(غير ذاتية).

إن مشكلة النظام البشري العام أنه لا يحاسب على الإجراءات، بل على النتائج، إلا في حالات محدودة، فالناس من حولك يريدون نتائج، والكل يطالبك بإلحاح، ولابد من تجاهل هذه المطالبات أحياناً من أجل التفرغ لسلامة الإجراءات والخطوات، لأن الإبداع ليس حلاً لأحجية ما خلال فترة محدودة من الوقت، وحيث أن لا أحد يكافئك على إجراءاتك، فإن عليك أن تكافئ نفسك متى كنت متيقناً من سلامة إجراءاتك وخطواتك وأنت بذلت غاية جهدك، وتذكر أن ممارسة بناء الأجسام لا تتم بين يوم وليلة.

كمـا أن الفشـل يمكن أن يأتي نتيجة اختلاف المفاهيم بين الإنسان والبيئة التي يعمل فيها، ونجد لذلك مثلاً في شاب ترك قريته بحثاً عن فرصة في المديـنة وعـندما حـط رحاله هناك، لاحظ وجود الفئران في كل مكان وكـل زاوية، فتفتق ذهنه عن اختراع مصائد حديثة سهلة، وفوجئ بعد أن صنع كميات كبيرة منها أنها لا تلقى رواجاً على الرغم من جودتها، إن ما لم ينتـبه له هـذا الشـاب أن ذلـك المجتمع متعايش مع الفئران، ولا يرغب أصلاً في التخلص منها، ولذلك فإن الدراسة الشاملة للبيئة يجب أن تشمل الإتجاهات والمواقف والعواطف والمفاهيم وليس الأرقام المجردة فقط.

صناعة الإبداع

يحظى التفكير الإبداعي ـ مثله مثل غيره من القيم ـ بالكثير من الكلام عنه من قبل الجميع، ولكنه يحظى أيضاً بالرفض الواسع النطاق كمنهج علم وعمل، وليس كنتيجة، إن المجتمعات لا تفعل الكثير من أجل جعل الإبداع يحدث، وتتوقع أن تتلقاه على قارعة الطريق، أو أن تشتريه متى استطاعت أن تدفع ثمنه.

بديهي أن الناس لن يتحولوا كلهم إلى مبدعين، فقد فضل الله سبحانه وتعالى بعضنا على بعض درجات، ولكن مناهج الحياة وطرقها وثقافاتها ينبغي أن تكون إبداعية، إن الإبداع يعمل في نطاق القادم من الأمور وليس القائم منها والكامن من الطاقات وليس الكائن منها، ويبدو آنفاً كمجتمعات وأفراد نعمل بمنطق سد الفراغ السياسي الشهير، إذ لا يريد القائم ، ولا يريد الكامن من الطاقات أن يفسح ولو هامشاً بسيطاً للكامن منها، ولا يوجد فراغ في الزمان ولا في المكان ولا في الإمكانات يسمح بتجربة الجديد، وإن كانت الأمثلة على ذلك موجودة في كل مكان، إلا أنه لابد من التذكير ببعض المنعطفات الخطرة.

عندما يتم البحث في تحديث أي نظام، فإننا نخاف كلمة التثوير، ونؤثر كلمة التطوير، وعندما اكتسحنا التغيير القادم في كل المجالات، فإننا صحونا من أجل التكيف فقط مع المعطيات الجديدة، دون نفكر في

العوامل التي تحول الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي ومن ثم ثقافي، ودون أن نفكر بالمؤشر الأول البسيط لمقاييس التكيف، حيث يبتدئ الإنسان تكيفه بالخضوع ثم بالمواءمة ثم ينتهي بالسيطرة، ونحن لا نزال نصر على عدم تخطي المرحلة الثانية، حيث نتباهى بقدراتنا العلمية مع أننا لا نزال عاجزين عن التواءم مع الظواهر الطبيعية ناهيك عن إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها، مع أن من المفروض أنها ((مسخرة)) لنا، وأن الأرض ذلول كي نستعمرها، ونحن لم نتقن استعمار الأرض بنفس الدرجة التي أجدنا بها استعمار أو (استحمار) بعضنا.

إن مبدأ التطور التلقائي مبدأ خطير جداً، فلن تتطور المؤسسات العلمية، إذا ظلت أقسام البحث والتطوير مكونة من عدد من الأكاديميين فقط، إن التعليم الجامعي أمر يهم الجميع، ولكن هل توجد هيئة يمكن أن تقبل الخروج على قواعد وقوانين الملعب الأكاديمي؟ من يشارك في أبحاث تطوير الجامعات؟ أنهم نفس الأشخاص الذين يتولون مهام إدارية فيها؟ وأين المجتمع؟ إنه خارج غرفة العمليات ينتظر النتائج؟ أين الإستفتاءات حول ذلك؟ أين مشاركة المجتمع؟ لا أحد يسأل، إن كل أقسام حفظ واستيداع المعلومات، يجب أن تغير حسب حاجات الإبداع الجديدة، وليس حسب موازين القوى السائدة في هذه المؤسسات، وإلا فأن التركيز سيبقي على الحفظ والتلقين، وهي مهمة الكتب وأجهزة الكمبيوتر، ويكفي العقل أن يعرف كيف يتوصل إلى المعلومات لا أن يكون كل عمله هو أن يحفظ، إن امتحان الكتاب المغلق في العلوم الإنسانية بخاصة لم يعد أمراً مستساغاً، وأن الربط التعسفي بين التفكير ومعامل الذكاء(I.O)

لم يعد مبرراً، فاختبارات الذكاء هي اختبارات مخبرية، كلها وحتى الآن، وهي لغوية في معظمها، وحتى بشكلها الحالي فإننا لا نستعملها كثيراً بدليل أن مختبرات فحص الدم والبول أكثر بكثير من اختبارات فحص الذكاء في مجتمعنا.

إن كل مناهجنا الدراسية تخلو من وجود أية مادة مستقلة لتعليم التفكير، وهذا أمر خطر جداً، إننا نزعم أن الفن مرتبط بالموهبة، ومع ذلك هناك مواد دراسية مستقلة للتربية الفنية، ونحن على وشك أن نعترف أن التفكير يختلف عن الذكاء من حيث أن التفكير مهارات يمكن تعلمها، ولكننا لا نزال نصر على استبعاده من المواد الدراسية.

إن التنمية العقلية هي المتطلب الإجباري السابق للتنمية الإقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومن عجب أن دولنا كلها تحسب ما لديها من دراهم ومال حتى آخر وحدة، ولكنها لا تستطيع حتى الآن احتساب قدراتها العقلية، ولذلك تبقى برامجها كلاماً في الهواء في كثير من الأحيان.

كذلك، فإن المجتمعات التي لا تستطيع مؤسساتها حل مشاكل البطالة، لا يمكن أن تفكر باستغلال سنوات الطلاب (من سن ١٥ ـ ٢٣) في عمل منتج يمكن أن تظهر من خلاله إبداعات الشباب، بل إن هذه المؤسسات تنتظر نهاية سنوات تعليم هؤلاء، ليس كي يتم التعامل معهم كموجودات عقلية / علمية وعملية/ وإنما كبنود ضمن خانة المطلوبات، إننا نضيّع ملايين سنوات العمل سنوياً لأن حلولنا تقوم على (التخطيط)... التخطيط من نقطة إلى نقطة، ولا نستطيع أن نؤسس لنظام

يقوم على التصميم وليس على التخطيط إن الفرق واضح، فالتخطيط يتعلق بالكائن، والتعامل مع الكائن مع الماضي والحاضر أسهل جداً من التعامل مع الكامن، ولذلك نركز على التخطيط من نقطة إلى نقطة وليس على التعميم بأن نضع نقطة الحاضر والماضي، ونتصور أين نريد الوصول، ثم نفكر بأفضل تصميم يوصلنا إلى الهدف البعيد.

كما أن نظامنا العقلي العام ـ وعلى علاته ـ لا يزال يصر على معاقبة الملتزمين به، ومكافأة الخارجين عليه، إلا نرى أن الواحد منا يقضي ساعات مع ضيوفه طالما أطفاله يلعبون وحدهم بهدوء دون أن يكافأهم بتفقد أحوالهم ؟ ومتى يكافؤهم باهتمامه ؟ إن ذلك يحصل فور أن تعلو أصواتهم، وكذلك المدرس في ساحة المدرسة، قد لا يعير انتباهاً لجموع الطلاب أمامه على حين أنه يهب مستنفراً عندما يتشاجر تلميذان معاً / قد تمت مكافأة (من خرجوا على النظام) ومعاقبة الملتزمين به، وكذلك الحال في التعامل مع الأغلبية الصامتة بتجاهل، مقابل الإهتمام الأقلية ذات الصوت الأعلى في كل مؤسسات المجتمع / ومع إهمال (الكم)، فإن من الصعب الحصول على (نوع) جديد، وإلا فمن أين يأتي الإبداع؟.

أما هامش الإجتهاد الشخصي في البحث، فيكفي الإطلاع على أبحاثنا ورسائلنا الجامعية، حيث المطلوب أن نجد بين المرجع والمرجع مرجعاً ثالثاً، وبين الهامش والهامش هامشاً آخر، وأين عقل البحث؟ يخصص له صفحات قليلة في الاستنتاجات أو التوصيات، أي إننا (نعلم) الطالب طيلة البحث أن ينسخ عن غيره، ثم نطلب منه فجأة ـ وفي آخر الصفحات أن يبدع ـ فهل تؤدي هذه المقدمة إلى النتيجة التي نريدها؟.

لماذا لا نعلم الطالب الباحث كيف يفكر، وكيف يعبر عن فكره الخاص من أول صفحة في "الدراسات السابقة" وحتى آخر توصية يخرج بها، ألا يمكن أن تتحسن توصيات الأبحاث واستنتاجاتها لو سلكنا فيها مسلكاً إبداعياً بحيث تتم الإفادة منها مجتمعياً بدل أن تظل نخبوية محصورة في الأوساط العلمية المعنية.

والأنكى من ذلك ما نشاهده من خنق للإبداع، باسم الإبداع !! إن أحداً لا ينكر أهمية التعليم من أجل إيجاد الفنان المبدع، والإعلامي الجيد، والناقد الجيد والمترجم الكفء، ولكن أين التعلم ؟ لنقل إن هذه المهن الإبداعية بحاجة إلى دراسة، ولكن هل هي بحاجة غلى دراسة (منتظمة) فقط ؟ لماذا إلغاء التعلم الذاتي ؟ في وقت لابد معه من مجابهة التغير من أجيال قادرة على ممارسة التعلم الذاتي المستمر وليس التعليم المستمر ؟ وأين الهامش الذي تركناه للإستعداد الفطري / الموهبة؟.

ولو نظرنا في واقع روابط الكتاب العربية بعامة مثلاً لوجدنا أنها تركز على الإنتاج الإبداعي كشرط للعضوية، ولكن هذا الإبداع مقصور على الإنتاج الأدبي بفنونه التقليدية من شعر وقصة ومسرحية.... الخ، فكيف يكون لنا إنتاج أدبي مبدع في علم النفس، وفي القانون، وفي السياسة...الخ، أما أننا لا نحتاج إلى الإبداع في هذه المجالات كلها؟.

وماذا يفيد المرء في هذه البيئات لو درس مئات الكتب عن التفكير الإبداعي؟ لهذا ينبغي التشديد على الإبداع الجمعي كبديل لمصطلحات مشوهة مثل اللاوعي الجمعي.

حل المشاكل :-

لم تتقدم اليابان ولا الولايات المتحدة تقنياً وعلمياً بناء على حل المشاكل الموجودة، لقد كان هناك قول أمريكي مفاده أنه إذا لم يكن الشيء مكسوراً فلماذا تصلحه؟ ثم اكتشف رجل الصناعة أن هذا القول يطيح بمستقبل صناعاتهم فأقاموا مراكز "البحث والتطوير" وتابعوا نحو إبداع الجديد في كل مجال، إننا لا نزال (نقدس) القدرة على حل المشاكل العلمية والعملية على أنها مؤشر من مؤشرات التفكير، ولكننا نقف عندها أكثر مما ينبغي، ولذلك نقضي أوقاتاً طويلة محاولين تشغيل أنظمة (مادية ومعنوية) تكون كلفة صيانتها أغلى من كلفة استبدالها، ومن جهة أخرى، فإن حل المشاكل فقط يمثل تجمداً عند مقياس محاولة التواءم مع البيئة بدل تخطي ذلك إلى السيطرة، وقد يكون عذرنا في ذلك كثرة المشاكل التي تحتاج إلى حل، وكثرة الأشياء المكسورَة التي تحتاج إلى إصلاح، فلا وقت ولا موارد ولا مكان لابتداع حلول جديدة، ولكن ذلك لا ينفي الواقع، إن حصر النشاط العقلي في حل المشاكل يمثل محدداً خطيراً يحد من توسيع دائرة التفكير الإبداعي في المجتمع ككل، وهكذا نظل مشغولين بإصلاح أنظمة عوادم غازات السيارات والمركبات، بدل البحث الجاد عن مصادر طاقة بديلة، لقد استوقفتني ملاحظة في كتاب صادر سنة ١٩٩٨م، يبحث في التعامل مع المبدعين حركياً في أصابعهم، بحيث نوجههم إلى العمل في المطابع من أجل صف الأحرف !! ـ مع أن كل الآت صف الحروف يدوياً كانت على وشك الإنقراض التام ـ أي أن ما هو مكتوب سنة ١٩٩٨م يصلح لسنوات الثلاثينات.

ينبغي أن نعلم أبناءنا غير ما تعلمنا، فقد وجدوا لزمان غير زماننا، إنني انظر بإشفاق لأطفالنا وهم يحملون على ظهورهم كل هذا الكم من الكتب التي يطلب إليهم حفظها، إننا كمن يعطي إبنه الباب كي يثبته في مكانه كلما رجع إلى البيت، فلماذا لا نفكر بأن ندع الباب مكانه، ونعطي الولد المفتاح فقط؟.

إن التلقين مهم، ولكنه لا يكفي للإبداع، ومن عجب أننا نقيم المسابقات لأطفالنا كي يحفظوا القرآن الكريم، ونتباهى بذلك، وهذا مهم، ولكن أين مسابقات التدبر والتفكر والتبصر؟ ألا يأمرنا الله بذلك؟ فلماذا وما الذي يمنعنا من أن نقوم به؟ إلا أن تكون كبيئة عقلية عامة نقدس التلقين ولا نأبه بالإبداع؟.

حتى نقول عن مجتمع إنه حاضن للإبداع، فلا بد على الأقل من توفر عاملين، لا يكلفان المجتمعات كثيراً، وهما : محو الأمية محواً تاماً، وتجنب فرض الأنظمة التي تعيق الإبداع.

في مجال محو الأمية، فإن الإنسان يستغرب من وجود حوالي ٩٠ مليون أمي فوق سن الخامسة عشرة من أعمارهم في الوطن العربي، بنسب مختلفة بين هذه الدولة وتلك، وتقارب نسبة الأمية في الوطن العربي حدود ٤٠-٥٠ % من عدد السكان، بما في ذلك دول غنية جداً بثرواتها الطبيعية، وهذه حقيقة مثيرة للفزع، فنحن نتحدث عن تجاوز التعليم التقليدي، ولكن هذه الحمولة الزائدة لابد أن تمنعنا من السير خطوة واحدة على أي طريق من طرق التقدم، ناهيك عن مخصصات التعليم،

وعـدم تكافؤ فرص التعليم، والتخوفات من خصوصية التعليم، ولا مجال لمجانية التعليم المستمر، ولا لمجانية المعرفة.

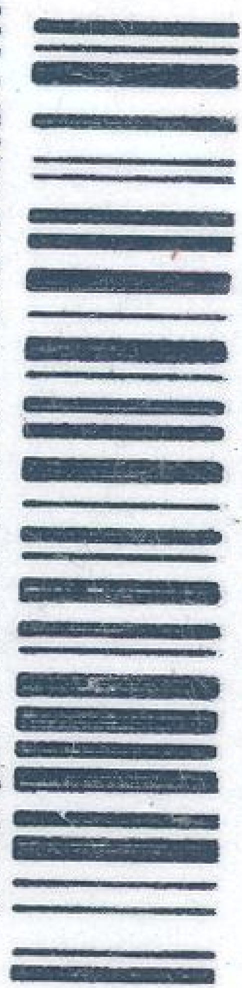
وفي مجـال فرض الأنظمة، فهناك مفارقات عجيبة أهمها أن الدول الأكثر ثراءً وتقدماً أقل تشدداً في فرض القيود الأكاديمية والمالية واشتراط "التراخـيص" لممارسـة الأعمـال الإبداعـية المخـتلفة، مـع أن المفروض في مجـالات إبداعـية كـالإعلام مـثلاً، أن تـتم (مراقـبة) الأداء، وليس وضع المحـددات، أمـا التجاوزات (الأخلاقية) فمجال معالجتها واسع من مبادئ أخلاقيات كل مهنة وحتى القوانين الدستورية العامة، فلماذا يكون لبعض النشـاطات قوانين خاصة بها ؟ في وقت يتجه فيه العالم إلى وحدة القوانين ونظامية المحاكم ؟.

إن معالجـة قضية التفكير الإبداعي لا تبدأ (بفرد) مبدع، وإنما مـن الأسـرة، ومـن الأم أولاً، وطالمـا أن هـناك أمية أوسع بين الأمهات، فلندع الإبداع يحدث وحده بعيداً عن وصايتنا.

- **Bert decker " the art of communicating " crisp, U.S.A 1996.**
- **Edward de bono " Iam right- you are wrong "Penjaen, U.S.A. 1994.**









عمان وسط البلد - طلوع جبل الحسين - مقابل مسجد التلهوني
عمان - شارع الجامعة الأردنية - مجدي مول - الطابق الثاني
٠٧٩٥٤٠٠٤٧٢ هاتف

kashkool printing service 0795594877